الأمر

عناصر الموضوع

مفهوم الأمر	٦٢
الأمر في الاستعمال القرآني	٦٣
الألفاظ ذات الصلة	٦٤
الأمر الإلهي في القرآن	٦٦
التعامل مع الأمر الإلهي وجزاؤه	٧٦
الأمر الإنساني وجزاء اتباعه	٩٣
جزاء اتباع الأمر الإنساني	١٠٦
أوامر إبليس وذريته	١١١

Made searchable using ScribeTools.com

مفهوم الأمر

أولًا: المعنى اللغوي:

الأمر: الشأن، وجمعه أمور، ومصدر أمرته: إذا كلفته أن يفعل شيئًا، وهو لفظ عام للأفعال والأقوال كله[١]؛ يقال: أمر فلانٍ مستقيمٌ وأموره مستقيمةٌ، وإذا أمرت من أمر قلت: مر، وأصله أؤمر، فلما اجتمعت همزتان، وكثر استعمال الكلمة حذفت الهمزة الأصلية فزال الساكن فاستغني عن الهمزة الزائدة، والهمزة والميم والراء أصولٌ خمسةٌ: الأمر من الأمور، والأمر ضد النهي، والأمر النماء والبركة بفتح الميم، والمعلم، والعجب[٢].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

الأمر في الاصطلاح: طلب الفعل على جهة الاستعلاء، أو هو: «طلب الفعل بالقول على سبيل الاستعلاء»[٣]، وعرف الجرجاني الأمر بقوله: «قول القائل لمن دونه: افعل»[٤].

ومن خلال ما سبق يتضح أن العلاقة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي هي علاقة العموم والخصوص، فالأمر في اللغة ينصرف على عدة معانٍ متباينة، أما الأمر في الاصطلاح فقد أتى بمعنى اصطلاحي يقتصر عليه.

(١) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٨٨.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ١/ ١٣٧، لسان العرب، ابن منظور، ٤/ ٢٧.
(٣) المحصول، الرازي، ٣/ ١٧، الإحكام في أصول الأحكام، الآمدي، ٢/ ١٤٠.
(٤) التعريفات، ص ٣٧.

الأمر في الاستعمال القرآني

وردت مادة (أمر) في القرآن (٢٤٨) مرة، يخص موضوعنا منها (٨٨) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١	﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾[الأعراف:١٢]
الفعل المضارع	٤٠	﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾[هود:٨٧]
فعل الأمر	٥	﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف:١٩٩]
اسم الفاعل	١	﴿الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [التوبة:١١٢]
صيغة المبالغة	١	﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾[يوسف:٥٣]
المصدر	٧	﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الأنعام:٨]

وجاء الأمر الذي جمعه أوامر في الاستعمال القرآني بمعنى: استدعاء الفعل بالقول من الأعلى إلى الأدنى[٢]. ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء:٥٨].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، محمد فؤاد عبد الباقي ص٧٨-٧٩.
(٢) انظر: نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص١٧٢.

Made searchable using ScribeTools.com

الألفاظ ذات الصلة

١ النهي:

النهي لغة:

النهي ضد الأمر، ونهاه عن كذا ينهاه نهيًا، أي: كف. . .، ونهى صديقه عن الخيانة، منعه وحذره منها[١].

النهي اصطلاحًا:

النهي: ضد الأمر وهو: اللفظ المستعمل لطلب الترك على وجه الاستعلاء[٢].

الصلة بين الأمر والنهي:

أن النهي يشترك مع الأمر في الدلالة على الطلب، إلا أن الأمر يراد منه طلب الفعل والإتيان به، أما النهي فيراد منه النهي عن الفعل والزجر عنه، فالنهي باعتبار اشتمال متعلقه على مفسدة كان مطلوب الترك، والأمر باعتبار اشتمال متعلقه على مصلحة كان مطلوب الفعل.

٢ الخبر:

الخبر لغة:

قال ابن فارس: الخاء والباء والراء أصلان: فالأول العلم، والثاني يدل على لينٍ ورخاوةٍ وغزرٍ[٣].

الخبر اصطلاحًا:

الخبر: هو الكلام المحتمل للصدق والكذب، والخبر: العلم بالأشياء المعلومة من جهة الخبر، وفي الاصطلاح القرآني: ما يعبر به عن واقعة معينة[٤].

الصلة بين الأمر والخبر:

الأمر: طلب الفعل على وجه الاستعلاء، والخبر: الكلام المحتمل للصدق والكذب، ونلاحظ أن هناك علاقة مترابطة بين المصطلحين، فالخبر يتضمن الأمر، والأمر يشمل الخبر وغيره.

(١) انظر: المفردات، الراغب، ١/ ٨٢٧، المصباح المنير، الفيومي، ٣/ ٦٢٩.
(٢) انظر: التعريفات، الجرجاني، ١/ ٢٤٨.
(٣) مقاييس اللغة، ٢/ ٢٣٩.
(٤) انظر، المفردات، الراغب، ٢٧٣ التعريفات، الجرجاني، ١/ ٩٦.

٣ الدعاء:

الدعاء لغة:

مأخوذ من مادة (د ع و) التي تدل في الأصل على إمالة الشيء إليك بصوت وكلام يكون منك، ومن هذا الأصل الدعاء في معنى الرغبة إلى الله عز وجل، وهو واحد الأدعية، والفعل من ذلك دعا يدعو، والمصدر الدعاء والدعوى[١].

الدعاء اصطلاحًا:

هو سؤال العبد ربه حاجته.

وقيل: طلب الأدنى من الأعلى تحصيل الشيء[٢].

الصلة بين الدعاء والأمر:

الفرق بين الدعاء والأمر أن في الأمر ترغيبًا في الفعل، وزجرًا عن تركه، وله صيغة تنبئ عنه، وليس كذلك الدعاء، وكلاهما طلب، وأيضًا فإن الأمر يقتضي أن يكون المأمور دون الآمر في الرتبة[٣].

(١) انظر: الصحاح، الجوهري ٦/ ٢٣٣٧، مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٢٨٠.
(٢) انظر، نزهة الأعين، ابن الجوزي ١/ ٢٩٢.
(٣) الفروق اللغوية، العسكري، ص٢٣١.

Made searchable using ScribeTools.com

الأمر الإلهي في القرآن

بين القرآن الكريم أنواع الأمر الإلهي، وتفرد الله تعالى بالخلق والأمر، وسوف يتناول البحث ذلك بالبيان فيما يأتي:

أولًا: الله سبحانه وتعالى له الخلق والأمر:

إن العقل السليم قاضٍ لا محالة بأن الموجود لابد له من موجد ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥].

وأن المخلوق لابد له من خالق، وأن الكون لابد له من مدبر، ولا محالة بأن يكون الخالق غير المخلوق في صفاته وذاته وأفعاله، وأن هذا الخالق من مقتضيات ألوهيته وربوبيته أنه له الخلق والأمر، الإيجاد والتدبير والحساب والجزاء، فهو سبحانه المتحكم في الأكوان والعقول والقلوب وسائر الموجودات والأشياء، وبالجملة فإنه ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الزمر: ٦٣].

فالله سبحانه خالق الكون ومدبره.

قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

والخلق: إيجاد الشيء من العدم، والأمر: التدبير والتصرف على حسب الإرادة لما خلقه، فهو سبحانه الخالق والمدبر للعالم على حسب إرادته وحكمته، لا شريك له في ذلك، فهو سبحانه هو الذي خلق الأشياء كلها، ويدخل في ذلك السموات والأرض وغيرهما، وهو الذي دبر هذا الكون على حسب إرادته[١].

يقول الإمام ابن عاشور: «والتعريف في الخلق والأمر تعريف الجنس، فتفيد الجملة قصر جنس الخلق وجنس الأمر على الكون في ملك الله تعالى، فليس لغيره شيء من هذا الجنس، وهو قصر إضافي معناه: ليس لآلهتهم شيء من الخلق ولا من الأمر، وأما قصر الجنس في الواقع على الكون في ملك الله تعالى فذلك يرجع فيه إلى القرائن، فالخلق مقصور حقيقة على الكون في ملكه تعالى، وأما الأمر فهو مقصور على الكون في ملك الله قصرًا ادعائيًا؛ لأن لكثير من الموجودات تدبير أمور كثيرة، ولكن لما كان المدبر مخلوقًا لله تعالى كان تدبيره راجعًا إلى تدبير الله»[٢].

ففي الآية دليل على أنه لا خالق إلا الله عز وجل، ففيه رد على من يقول: إن للشمس والقمر والكواكب تأثيرات في هذا العالم، فأخبر الله أنه هو الخالق المدبر لهذا العالم لا الشمس والقمر والكواكب، وله الأمر المطلق، وليس لأحد أمر غيره، فهو الآمر

(١) التفسير الوسيط، طنطاوي ٨/ ١٦٩.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ١٦٩.

والناهي الذي يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد لا اعتراض لأحد من خلقه عليه، ويدخل في ذلك السماوات والأرض والشمس والقمر والليل والنهار دخولًا أوليًا، فهو الذي دبرها وصرفها على حسب إرادته[١].

فقوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

فيه ما يسمى (إيجاز قصر) وهو جمع المعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة، فالآية أرشدت أن الله عز وجل هو المنفرد بقدرة الإيجاد، وخالق السماوات والأرض، فهو الذي يجب أن يعبد؛ ولهذا عندما سئل المشركون عن المدبر والخالق لهذا الكون بما يحويه من سماء وأرض ونجوم وجبال وشجر، فكان الجواب بدون تردد بأنه هو الحق سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٢١][٢].

فهو يدبر أمر ملكه بما اقتضاه علمه من النظام، واقتضته حكمته من الإحكام، ولا يستنكر من رب هذا الخلق المدبر لأمور عباده أن يفيض ما شاء من علمه على من اصطفى من خلقه، ما يهديهم به لما فيه كمالهم من عبادته وشكره؛ وبذلك تصلح أنفسهم، وتطهر قلوبهم، وتستنير أفئدتهم؛ لتتم لهم بذلك الحياة السعيدة في الدنيا، والنعيم المقيم في الآخرة، كما لا يستنكر أن هذا الوحي منه عز وجل إذ هو من كمال تقديره وتدبيره، ولا يقدر عليه سواه[٣].

فالخالق المدبر له ﴿ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [الروم: ٤].

يقضي في خلقه ما يشاء، ويحكم ما يريد، ويظهر من شاء منهم على من أحب إظهاره عليه، فلله الأمر من قبل ومن بعد، فإياك أن تظن أن انتصار الباطل جاء غصبًا عن إرادة الله، أو خارجًا عن مراده، إنما أراده الله وقصده لحكمة، يعني: إياكم أن تفهموا أن انتصار الفرس على الروم، أو انتصار الروم على الفرس خارج عن مرادات الله، فلله الأمر من قبل الغلب، ولله الأمر من بعد الغلب، فحين غلبت الروم لله الأمر، وحين انتصرت الفرس لله الأمر؛ لأن الحق سبحانه يهيج أصحاب الخير بأن يغلب أصحاب الشر، ويحرك حميتهم، ويوقظ بأعدائهم مشاعرهم، وينبههم إلى أن الأعداء لا ينبغي أن يكونوا أحسن منهم[٤].

فقوله سبحانه: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [الروم: ٤].

(١) التفسير المنير، الزحيلي ٣/ ٢٣٠.
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ٢٠٩.
(٣) تفسير المراغي ١١/ ٦٣.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢/ ٦٦.

Made searchable using ScribeTools.com

جملة معترضة لبيان قدرة الله تعالى التامة النافذة، فليس الغلبة والنصر لمجرد وجود الأسباب، وإنما هي لابد أن يقترن بها القضاء والقدر[١].

قال ابن كثير: «وقد كانت نصرة الروم على فارس يوم وقعة بدر، في قول طائفة كبيرة من العلماء...، فلما انتصرت الروم على فارس فرح المؤمنون بذلك؛ لأن الروم أهل كتاب في الجملة، فهم أقرب إلى المؤمنين من المجوس، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، كما هو عند جمهور المفسرين»[٢].

فالحق سبحانه ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾[الرعد: ٢].

فالتدبير والتفصيل متجدد متكرر بتجدد تعلق القدرة بالمقدورات، وتدبير الأمر: تصريفه على أحسن الوجوه وأحكمها وأكملها، والآيات: جمع آية، والمراد بها هنا: ما يشمل الآيات القرآنية، والبراهين الكونية الدالة على وحدانيته وقدرته سبحانه.

أي: أنه سبحانه يقضي ويقدر ويتصرف في أمر خلقه على أكمل الوجوه، ومن تدبيره لأمور خلقه، ومن تفصيله للآيات لعلكم عن طريق التأمل والتفكير فيما خلق توقنون بلقائه، وتعتقدون أن من قدر على إيجاد هذه المخلوقات العظيمة لا يعجزه أن يعيدكم إلى الحياة بعد موتكم؛ لكي يحاسبكم على أعمالكم[٣].

فالحق يوضح الآيات والدلالات الدالة على أنه لا إله إلا هو، وأنه يعيد الخلق إذا شاء كما بدأه، فالله سبحانه وتعالى تصير إليه جميع الأمور ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠].

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾[آل عمران: ١٠٩].

وهو المجازي على الأعمال بالثواب والعقاب.

ففيه دليل على كمال القدرة والرحمة؛ لأن جميع العالم محتاجون إلى تدبيره ورحمته، داخلون تحت قهره وقضائه وقدرته ﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾[الرعد: ٢].

يعني: أنه تعالى يبين الآيات الدالة على وحدانيته وكمال قدرته، ومنها الموجودات المشاهدة، وهي خلق السماوات والأرض وما فيهما من العجائب، وأحوال الشمس والقمر وسائر النجوم والموجودات الحادثة في العالم، وهي الموت بعد الحياة، والفقر بعد الغنى، والضعف بعد القوة، إلى غير ذلك من أحوال هذا العالم، وكل ذلك مما يدل على وجود الصانع، وكمال قدرته[٤].

(١) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٦/ ٣١٠.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٣٠٣.
(٣) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٧/ ٤٤٠.
(٤) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٣/ ٤.

فله تعالى القدرة المطلقة ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد:٣١].

أي: لو ثبت أن قرآنًا يقرأ ويتلى سيرت به الجبال، فانتقلت من أماكنها، وانفسحت عن شعابها لتتسع رقعة للزرع والغراس، أو قطعت الأرض فتشققت، لا تكون منها بحار تجري فيها المياه، أو يكلم به الموتى بمعنى أنه يحييها، ثم يكلمها، ولكن الكلام لا يسير الجبال، ومع ذلك فهو أقوى تأثيرًا، وكان يمكن أن يؤثر في قلوب المشركين بأشد من ذلك، لولا أن عنادهم حجر قلوبهم، وكما قال سبحانه: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر:٢١] ولكن القلوب التي سكنها الشرك والكفر، وهي كالحجارة أو أشد قسوة، بل لله الأمر جميعًا، الإضراب للانتقال بين هذا إلى بيان أن اختيار المعجزات من أمر الله، وله وحده كل الأمر، أي: أن الإضراب متوجه إلى ما يؤدي إليه كون الأمر لله سبحانه، ويستلزمه من توقف الأمر على ما تقتضيه حكمته ومشيئته[(١)].

فمما لايشك فيه شاك، ولا يرتاب فيه مرتاب بأن ﴿ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

فالقضاء والقدر خيره وشره، حلوه ومره بيد الله، وجميع الأمور لله سبحانه وتعالى، فالحكم والشأن المتعلق بعموم ما يكون وما كان كله لله، مستند إليه أولًا، وبالذات بلا رؤية الأسباب والوسائل[(٢)].

وبهذه الآيات وغيرها يثبت أن الخالق المدبر الموجد لجميع العوالم هو الحق سبحانه وتعالى القادر المقتدر، بيده الخير كله، وإليه يرجع الأمر، والله وأعلم.

ثانيًا: أنواع الأمر الإلهي:

١. الأمر القدري الكوني.

يتمثل في أمر الإنشاء والتكوين والإيجاد.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [غافر: ٦٨].

يعني: فإذا قضى وقدر أمرًا يريد إنفاذه وإيجاده وإنشاءه، وإخراج المخلوق من العدم، فإنما يقول له: كن فيكون، ويوجد من غير توقف على شيء آخر، ولا معاناة ولا كلفة، أي: إن كل مخلوق يوجد بإرادة الله وحده، مما يدل على وجوده سبحانه، وبهذا يتبين أن إيجاد المخلوق يعتمد على أمرين: الأمر الإلهي بالإيجاد (أي الأمر القدري الكوني) وتلبس القدرة الإلهية بإيجاده وإظهاره، لا قبل ذلك، ففي حال العدم لا يظهر الشيء؛ إذ لا يوجد الأمر، ولا شيء بعد الإيجاد؛ لأن ما هو كائن لا يقال

(١) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٨/ ٣٩٥٢.

(٢) الفواتح الإلهية، الشيخ علوان ١/ ١٣٠.

Made searchable using ScribeTools.com

له: كن[1].

وقال عز من قائل: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٣٦].

فالمراد من الأمر هنا الأمر التكويني.

أي: إنما شأنه تعالى في إيجاد الأشياء أن يقول لما يريد إيجاده: تكون فيتكون، ويحدث فورًا بلا تأخير[2].

وعن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (**إن الله يقول: يا عبادي، كلكم مذنب إلا من عافيت، فاستغفروني أغفر لكم. . .، وكلكم فقير إلا من أغنيت، فاسألوني أغنكم. . .، كذلك لا ينقص من ملكي، ذلك بأني جواد ماجد صمد، عطائي كلام، وعذابي كلام، إذا أردت شيئًا فإنما أقول له: كن، فيكون**)[3].

فالآيتان تنبهان على قدرة الله في الإحياء والإماتة، وعلى سرعة إنجاز الخلق والتكوين بمجرد إرادة الله الفعل.

٢. الأمر الشرعي الديني.

يتمثل الأمر الشرعي الديني في أمر الحق سبحانه وتعالى، وكذلك أمر النبي صلى الله عليه وسلم للعباد بالإيمان، والتوحيد، وأداء العبادات، والتكاليف الشرعية، والأمر بالتمسك بالأخلاق والقيم، فالأمر الشرعي الديني يشمل الأمر العلمي (الاعتقادي) والعملي (التكليفي) والتهذيبي (الأخلاقي).

وبالجملة يشمل كل ما هو مطلوب من العباد في جميع المجالات، وعلى كل الأصعدة، أي سواء أكانت تلك الأوامر متعلقة بمطلوب يتعلق بعلاقة العبد بربه، أو علاقته بغيره من البشر، أو علاقته بنفسه وذاته التي بين جنبيه، أم غير ذلك، فكل ما هو مطلوب من العبد يدخل تحت الأمر الشرعي[4].

قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

بيان لما أمر به اليهود والنصارى من التوحيد والإخلاص لله بعد أن ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة: ٣١].

وبين الحق ما أمر به النبي من قبل الحق سبحانه وتعالى ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ١١].

(١) التفسير الوسيط، الزحيلي ٣/ ٢٢٨٤.
(٢) تفسير المراغي ٢٢/ ٣٩.
(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٥/ ٢٩٤، رقم ٢١٣٦٧، والترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، ٤/ ٢٣٨، رقم ٢٤٩٥، وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، ٢/ ١٤٢٢، رقم ٤٢٥٧. وضعفه الألباني في ضعيف الجامع ٢/ ٩٣٤، رقم ٦٤٣٧.
(٤) ويدخل في هذا النوع كل الأوامر في القرآن والتي يطلب الحق، سبحانه وتعالى، من عباده الإتيان بها سواء أكانت بلفظ الأمر ومشتقاته أو بأي صيغة أخرى تدل على طلب الفعل.

فأمر النبي بعبادة الله، والإخلاص له، وهذا الأمر تدخل فيه الأمة المحمدية أيضًا، فهذا أمر شرعي ديني علمي أو اعتقادي، وقال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢].

فهنا أمرٌ للنبي بأمر أهله بالصلاة والصبر عليها، والصلاة من التكاليف العملية، فهذا أمر شرعي ديني تكليفي.

٣. الأمر الجزائي.

يتمثل في الجزاء المترتب على اتباع الأمر أو مخالفته، سواء أكان الجزاء دنيويًا أو أخرويًا، أي: حاضرًا أو مؤجلًا.

ومنه قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ۚ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

أي: إنما أمرهم إلى الله يتولى جزاءهم، ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون بالعقاب، إذا وردوا للقيامة[(١)].

ومثله: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ [هود: ٦٦].

أي: فلما جاء أمرنا بإنزال العذاب بهم في الوقت المحدد نجينا صالحًا والذين آمنوا معه برحمة عظيمة كائنة منا[(٢)].

فأمر الله تمثل في الجزاء الذي لحق بهم، وهو الهلاك والدمار لعدم إيمانهم بالله ورسوله، والأمر الجزائي قد يكون أخرويًا كما في المثال الأول، وقد يكون دنيويًا كما في الثاني.

هذا عن مخالفة الأمر الإلهي، أما اتباع الأمر الإلهي فيكون له جزاء (إيجابي) هو الآخر كنتيجة طبيعية لتنفيذه، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

يعني: ﴿وَأُولَٰئِكَ﴾ الداعون إلى الخير، الآمرون بالمعروف، الناهون عن المنكر ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ فمقتضى القيام بحق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أنه يؤدي إلى الفلاح في الدنيا والآخرة، ففي النص قصر، أي: نفي وإثبات، فهو يثبت الفلاح لهم، وينفي الفلاح عن غيرهم ممن لم يقم بهذا الواجب المقدس[(٣)].

ثالثًا: صفات الأمر الإلهي:

من خلال تتبع النصوص التي بينت الأمر الإلهي نجد أنه يتميز بعدة صفات أساسية:

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٢١٠، أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ١٩١.

(٢) انظر: الوسيط، طنطاوي ٧/ ٢٣٦.

(٣) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٣/ ١٣٤٨.

Made searchable using ScribeTools.com

١. القسط.

وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾[الأعراف: ٢٩].

وهذا بيانٌ للمأمور به، وهو العدل، يقول تعالى ذكره لنبيه: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الذين يزعمون أن الله أمرهم بالفحشاء كذبًا على الله: ما أمر ربي بما تقولون، بل ﴿أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ يعني: بالعدل، هو الوسط من كل أمر، المتجافي عن طرفي الإفراط والتفريط[(١)] ولهذا فـ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢، الحجرات: ٩، الممتحنة: ٨].

وفيه أن الله سبحانه يأمر بالعدل لا كما زعم المشركون والكفار من أن الله أمرهم بالفحشاء، أي: قل أمر ربي بالقسط فأطيعوه واتبعوه، فالحق سبحانه وتعالى من صفات أمره أنه يأمر عباده في هذا القرآن بالعدل والإنصاف، فيجب أن نكون نحن -من جانبنا- من العادلين في حقه بتوحيده، وعدم الإشراك به، قال أبو سليمان: العدل في كلام العرب: الإنصاف، وأعظم الإنصاف: الاعتراف للمنعم بنعمته، وفي حق عباده بإعطاء كل ذي حق حقه[(٢)].

فالله أمر بالفضائل، وبما تشهد العقول السليمة أنه صلاح محض، وأنه حسن مستقيم، فالقصاص من القاتل عدل بين إحلال الدماء وبين قتل الجماعة من قبيلة القاتل لأجل جناية واحد من القبيلة لم يقدر عليه، وأمر الله بالإحسان وهو عدل بين الشح والإسراف، فالقسط صفة للفعل في ذاته بأن يكون ملائمًا للصلاح عاجلًا وآجلًا، أي: سالمًا من عواقب الفساد[(٣)].

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠].

وإيثار صيغة المضارع في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ﴾ لإفادة التجدد والاستمرار، ولم يذكر سبحانه متعلقات العدل والإحسان؛ ليعم الأمر جميع ما يعدل فيه، وجميع ما يجب إحسانه وإتقانه من أقوال وأعمال، وجميع ما ينبغي أن تحسن إليه من إنسان أو حيوان أو غيرهما[(٤)].

٢. الظهور.

ويوضحه قوله تعالى: ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ [التوبة: ٤٨].

قال ابن كثير: «لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة رمته العرب عن قوس

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٣٧٩، أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ١٠.
(٢) زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٥٧٩.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٨٦.
(٤) التفسير الوسيط، طنطاوي ٨/ ٢٢٠.

واحدة، وحاربته يهود المدينة ومنافقوها، فلما نصره الله يوم بدر، وأعلى كلمته، قال ابن أبي وأصحابه: هذا أمر قد توجه -أي أقبل- فدخلوا في الإسلام ظاهرًا، ثم كلما أعز الله الإسلام وأهله أغاظهم ذلك وساءهم»[1].

فالمنافقون والمشركون يكيدون المكائد، ويدبرون المؤامرات ويحيكونها ضد النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه، إلى غاية هي مجيء الحق، وهو النصر لك والتأييد، وظهر أمر الله بإعزاز دينه، وإعلاء شرعه، وقهر أعدائه، وقيل: الحق القرآن، وهم كارهون، أي: والحال أنهم كارهون لمجيء الحق، وظهور أمر الله، ولكن كان ذلك على رغم منهم، فلن تفلح مكائد البشر من منافقين ويهود ومشركين وغيرهم، ولن تقف أي قوة في الدنيا أمام إرادة الله القاهرة لإعلاء دينه، وغلبة شرعه، ونصرة نبيه صلى الله عليه وسلم[2].

٣. النفاذ.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [النساء:٤٧]

فهنالك وعيد لليهود، ونذير راصد لهم باللعنة من عند الله، إن لم يؤمنوا بمحمد، وبما أنزل الله عليه، وقد وصفهم القرآن بأنهم أوتوا الكتاب مع أنهم ضيعوا جزءًا منه، وحرفوا جزءًا آخر تسجيلًا عليهم بالتقصير، واستحقاق العقاب، فهم يظنون أن الله مخلف وعيده لهم؛ لأنهم - كما زعموا- أبناء الله وأحباؤه، وكيف وقد وقع هذا العقاب بآبائهم وأخذهم الله به؟ أم يظنون أن الله إذا أراد أمرًا بهم، وساق شرًا إليهم أهناك من يدفع ما أراده الله بهم؟ فلينتظروا، وسوف يرون ما الله فاعل بهم[3].

وكان أمر الله بإيقاع شيء أو وعيده، أو ما حكم به وقضاه مفعولًا نافذًا وكائنًا، فيقع لا محالة ما أوعد وقضى به، فقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ معناه: أنه كان وما زال جميع ما أمر الله به وقضاه نافذًا لا محالة؛ لأنه سبحانه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

فالجملة الكريمة تذييل قصد به تهديد هؤلاء الضالين المعاندين حتى يثوبوا إلى رشدهم، ويدخلوا في صفوف المؤمنين[4].

فالمراد من الأمر: الأمر التكويني المعبر عنه بقوله عز من قائل: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ٤/ ١٦١.
(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٤١٩، التفسير المنير، الزحيلي ١٠/ ٢٤٠.
(٣) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ٣/ ٨١١.
(٤) التفسير الوسيط، طنطاوي ٣/ ١٧٧.

Made searchable using ScribeTools.com

﴿شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

أي: إنما أمره بإيقاع شيء ما[١] لابد من وقوعه، أي: ولابد أن يحدث.

٤. أمر الله له الغلبة.

ويشير إلى ذلك قوله: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ [يوسف: ٢١].

قيل: الهاء في ﴿أَمْرِهِۦ﴾ كناية عن الله تعالى، يقول: إن الله غالب على أمره يفعل ما يشاء، لا يغلبه شيء ولا يرد حكمه راد، يعني: غالبٌ على ما أراد من قضائه، لا يغلب غالبٌ على أمره، ولا يبطل إرادته منازعٌ.

فهو غالب على أمر نفسه فيما يريده ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

أي: إذا أراد شيئًا فلا يرد ولا يمانع ولا يخالف، بل هو الغالب لما سواه، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

أن الأمر كذلك فيما يأتون ويذرون زعمًا منهم أن لهم من الأمر شيئًا، وأنى لهم ذلك؟! وأن الأمر كله لله عز وجل، أو لا يعلمون لطائف صنعه، وخفايا فضله[٢].

ويقول تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨].

يبين القرآن الكريم ما يفتري به هؤلاء المشركين على الحق سبحانه وتعالى، ونسبتهم إليه الأحكام والشرائع الباطلة، فيقول: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ قال الطبري: «كانوا يطوفون بالبيت عراة، يقولون: نطوف كما ولدتنا أمهاتنا فتضع المرأة على قبلها النسعة أو الشيء»[٣].

وقيل: كان قبيلة من العرب من أهل اليمن يطوفون بالبيت عراة، فإذا قيل: لم تفعلون ذلك؟ قالوا: وجدنا عليها آباءنا، والله أمرنا بها.

فتأويل الكلام إذًا: وإذا فعل الذين لا يؤمنون بالله، الذين جعل الله الشياطين لهم أولياء، قبيحًا من الفعل، وهو الفاحشة[٤]، وذلك تعريهم للطواف بالبيت، وتجردهم له، فعذلوا على ما أتوا من قبيح فعلهم، وعوتبوا عليه، قالوا: «وجدنا على مثل ما نفعل آباءنا، فنحن نفعل مثل ما كانوا يفعلون، ونقتدي بهديهم، ونستن بسنتهم، والله أمرنا به، فنحن نتبع أمره فيه».

فيقول الله -جل ذكره- لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ﴾ خلقه ﴿بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ بقبائح الأفعال ومساويها ﴿أَتَقُولُونَ﴾ أيها الناس

(١) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ١٠/ ٢٤٠، تفسير المراغي ٥/ ٦٥.

(٢) انظر: الوجيز، الواحدي ١/ ٥٤٢، معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٢٢٦.

(٣) جامع البيان ١٨/ ٣٧٩.

(٤) انظر: تفسير الخازن ٢/ ١٩٢.

﴿عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ يعني: أتروون على الله أنه أمركم بالتعري والتجرد من الثياب واللباس للطواف، وأنتم لا تعلمون أنه أمركم بذلك؟

فإنكم لم تسمعوا كلام الله تعالى ابتداء من غير واسطة، ولا أخذتموه عن الأنبياء الذين هم وسائط بين الله تعالى وبين عباده في تبليغ أوامره ونواهيه وأحكامه؛ لأنكم تنكرون نبوة الأنبياء، فكيف تقولون على الله ما لا تعلمون؟

هذه الأفعال التي كان أهل الجاهلية يفعلونها هي في أنفسها قبيحة منكرة، فكيف يأمر الله تعالى بها، والله لا يأمر بالفحشاء، بل يأمر بما فيه مصالح العباد؛ لأن عادته سبحانه وتعالى جرت على الأمر بمحاسن الأفعال، والحث على مكارم الخصال[1].

يقول الإمام الرازي: «اعلم أنه ليس المراد منه أن القوم كانوا يسلمون كون تلك الأفعال فواحش، ثم كانوا يزعمون أن الله أمرهم بها، فإن ذلك لا يقوله عاقل، بل المراد أن تلك الأشياء كانت في أنفسها فواحش، والقوم كانوا يعتقدون أنها طاعات، وأن الله أمرهم بها، ثم إنه تعالى حكى عنهم أنهم كانوا يحتجون على إقدامهم على تلك الفواحش بأمرين، أحدهما: إنا وجدنا عليها آباءنا، والثاني: إن الله أمرنا بها.

أما الحجة الأولى: فما ذكر الله عنها جوابًا؛ لأنها إشارة إلى محض التقليد، وقد تقرر في عقل كل أحد أنه طريقة فاسدة؛ لأن التقليد حاصل في الأديان المتناقضة، فلو كان التقليد طريقًا حقًا للزم الحكم بكون كل واحد من المتناقضين حقًا، ومعلوم أنه باطل، ولما كان فساد هذا الطريق ظاهرًا جليًا لكل أحد لم يذكر الله تعالى الجواب عنه.

وأما الحجة الثانية: وهي قولهم: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨].

فقد أجاب عنه بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ والمعنى: أنه ثبت على لسان الأنبياء والرسل كون هذه الأفعال منكرة قبيحة، فكيف يمكن القول بأن الله تعالى أمرنا بها؟»[2].

وبهذا الرد القرآني دحضت أقوالهم، وتبين أن الله تعالى منزه عن الأمر بالفحشاء والمنكر والمعاصي.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٨٥.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٢٢٥.

Made searchable using ScribeTools.com

التعامل مع الأمر الإلهي وجزاؤه

بين القرآن أصناف الخلق في التعامل مع الأمر الإلهي، سواء كانوا ملائكة، أو رسلًا، أو مؤمنين، أو كافرين، أو منافقين، وسوف نتناول ذلك بالبيان فيما يأتي:

أولًا: تعامل الملائكة مع الأمر الإلهي:

تعامل الملائكة مع الأمر الإلهي يتضح فيما يلي:

١. الطاعة والامتثال.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم:٦]

يقول الإمام الطبري: «يعني: على هذه النار ملائكة من ملائكة الله، غلاظ على أهل النار، شداد عليهم، لا يخالفون الله في أمره الذي يأمرهم به، وينتهون إلى ما يأمرهم به ربهم، فليست الجملتان في معنى واحد؛ إذ معنى الأولى: أنهم يتقبلون أوامره ويلتزمونها، ومعنى الثانية: أنهم يؤدون ما يؤمرون به، ولا يتثاقلون عليه، ولا يتوانون فيه»(١).

وقال الألوسي: «فإن الأولى لبيان القبول باطنًا؛ فإن العصيان أصله المنع والإباء، وعصيان الأمر صفة الباطن بالحقيقة؛ لأن الإتيان بالمأمور إنما يعد طاعة إذا كان بقصد الامتثال، فإذا نفي العصيان عنهم دل على قبولهم، وعدم إبائهم باطنًا، والثانية لأداء المأمور به من غير تثاقل وتوانٍ على ما يشعر به الاستمرار المستفاد من ﴿وَيَفۡعَلُونَ﴾ فلا تكرار، وفي الحصول لا يعصون فيما مضى، على أن المضارع لحكاية الحال الماضية ﴿وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ في الآتي، وجوز أن يكون ذلك من باب الطرد والعكس، وهو كل كلامين يقرر الأول بمنطوقه مفهوم الثاني وبالعكس، مبالغة في أنهم لا تأخذهم رأفة في تنفيذ أوامر الله عز وجل والغضب له سبحانه»(٢).

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۚ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٧].

فالله تعالى يثني على ملائكته الذين زعم فريق من المشركين أنهم بنات الله، فيقول: إنهم عباد أكرمهم الله واصطفاهم، يتبعون قوله، فلا يقولون شيئًا حتى يقوله تعالى، أو يأمرهم به كما هو شأن العبيد المؤدبين ﴿وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ﴾ فلا يعصونه في أمر، إشارة إلى مراعاتهم في أدب العبودية

(١) جامع البيان، ٢٣/ ٤٩٢.

(٢) روح المعاني، الألوسي ١٤/ ٣٥٢.

في الأفعال أيضًا كالأقوال[1].

ويؤكده قوله: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم ٦٤].

٢. تقسيم أمره بين الخلائق.

قال تعالى: ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ [الذاريات: ٤].

والمراد بالمقسمات: الملائكة، فإنهم يقسمون أرزاق العباد وأمورهم وشؤونهم على حسب ما يكلفهم الله تعالى به من شؤون مختلفة، و﴿أَمْرًا﴾ مفعول به للوصف الذي هو المقسمات، وهو مفرد أريد به الجمع، أي: المقسمات لأمور العباد بأمر الله تعالى وإرادته[2].

فعن أبي الطفيل أنه سمع عليًا رضي الله عنه يقول وهو على منبر الكوفة: لا تسألوني عن آية في كتاب الله، ولا عن سنة رسول الله، إلا أنبأتكم بذلك، فقام إليه ابن الكواء فقال: يا أمير المؤمنين، ما معنى قوله تعالى: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾ [الذاريات: ١]؟ قال: الريح. ﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا﴾ [الذاريات: ٢]. قال: السحاب. ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾ [الذاريات: ٣]؟ قال: السفن ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ [الذاريات: ٤]؟ قال: الملائكة[3].

وهناك فريق من العلماء من يرى أن هذا اللفظ راجع للرياح، ومن هؤلاء الإمام الرازي، حيث قال: «هذه صفات أربع للرياح، فالذاريات: هي الرياح التي تنشئ السحاب أولًا، والحاملات: هي الرياح التي تحمل السحب التي هي بخار الماء. . .، والجاريات: هي الرياح التي تجرى بالسحب بعد حملها، والمقسمات: هي الرياح التي تفرق الأمطار على الأقطار»[4].

قال الألوسي محاولًا الجمع بين الرأيين: «ثم إذا حملت هذه الصفات على أمور مختلفة متغايرة بالذات - كما هو الرأي المعول عليه- فالفاء للترتيب في الأقسام ذكرًا ورتبة، باعتبار تفاوت مراتبها في الدلالة على كمال قدرته عز وجل، وهذا التفاوت إما على الترقي أو التنزل؛ لما في كل منها من الصفات التي تجعلها أعلى من وجه، وأدنى من آخر، وإن حملت على واحد وهو الرياح، فهي لترتيب الأفعال والصفات؛ إذ الريح تذرو الأبخرة إلى الجو أولًا، حتى تنعقد سحابًا، فتحمله ثانيًا، وتجرى به ثالثًا ناشرة وسائقة له إلى حيث أمرها الله تعالى، ثم تقسم أمطاره»[5].

يقول صاحب تفسير الوسيط: «ومع وجاهة رأى الإمام الرازي في هذه المسألة

(١) محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ١٨٩.
(٢) الوسيط، طنطاوي ١٤/ ١٠.
(٣) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٢/ ٣٩٢.
(٤) مفاتيح الغيب ٧/ ٦٢٨.
(٥) روح المعاني ٧/ ٣٩١.

Made searchable using ScribeTools.com

إلا أننا نؤثر عليه الرأي السابق؛ لأنه ثابت عن بعض الصحابة؛ ولأن كون هذه الألفاظ الأربعة لها معانٍ مختلفة أدل على قدرة الله تعالى وعلى فضله على عباده»[1].

وإنما ذكرهم بالمقسمات لأن الإنسان في الأجزاء الجسمية غير مخالف تخالفًا بينًا، فإن لكل أحد رأسًا ورجلًا، والناس متقاربة في الأعداد والأقدار، لكن التفاوت الكثير في النفوس، فإن الشريفة والخسيسة بينهما غاية الخلاف، وتلك القسمة المتفاوتة تتقسم بمقسم مختار ومأمور مختار، فقال: ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾ [الذاريات: ٤][2].

قال ابن السائب: والمقسمات أربعة: جبريل، وهو صاحب الوحي والغلظة، وميكائيل، وهو صاحب الرزق والرحمة، وإسرافيل وهو صاحب الصور واللوح، وعزرائيل وهو قابض الأرواح، وإنما أقسم بهذه الأشياء لما فيها من الدلالة على صنعه وقدرته[3].

٣. تدبير الأمر بين الخلائق.

قال تعالى: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥].

يقول الإمام الطبري: يعني: فالملائكة المدبرة ما أمرت به من أمر الله، قال القشيري: أجمعوا على أن المراد: الملائكة، قال الجمل: اختلفت عبارات المفسرين في هذه الكلمات، هل هي صفات لشيء واحد أو لأشياء مختلفة؟ على أوجه:

واتفقوا على أن المراد بقوله: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥]، وصف لشيء واحد، وهم الملائكة[4].

فقوله: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ المقصود به طائفة من الملائكة، من وظائفهم تدبير شأن الخلائق، وتنظيم أحوالهم بالطريقة التي يأمرهم سبحانه بها، فنسبة التدبير إليهم إنما هي على سبيل المجاز؛ لأن كل شيء في هذا الكون إنما هو بقضاء الله وتقديره وتدبيره[5].

قال ابن عباس رضي الله عنه: هم الملائكة، وكلوا بأمور عرفهم الله عز وجل العمل بها، وقال عبد الرحمن بن سابط: يدبر الأمر في الدنيا أربعة أملاك: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت، واسمه عزرائيل، فأما جبريل فموكل بالرياح والجنود، وأما ميكائيل فموكل بالقطر والنبات، وأما ملك الموت فموكل بقبض الأنفس، وأما إسرافيل فهو ينزل عليهم بالأمر من الله تعالى، وأقسم الله تعالى بهذه الأشياء لشرفها...

(١) انظر: الوسيط، طنطاوي ١٤/ ١١.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٨/ ١٦١.
(٣) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ١٦٧.
(٤) حاشية الجمل ٤/ ٤٧٧.
(٥) الوسيط، طنطاوي ٢٠/ ١٢٦.

وقال الإمام الرازي: «لم قال: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ ولم يقل: أمورًا، فإنهم يدبرون أمورًا كثيرة لا أمرًا واحدًا؟ والجواب: أن المراد به الجنس، وإذا كان كذلك قام مقام الجمع»[1].

ثانيًا: تعامل الرسل مع الأمر الإلهي:

يتمثل تعامل الرسل مع أمر الحق سبحانه وتعالى كما يلي:

١. الطاعة والامتثال.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

قال مجاهد عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: لما شب حتى بلغ سعيه سعي إبراهيم، والمعنى أن ينصرف معه ويعينه في علمه، اختبر إبراهيم فيه برؤية رآها، قال إبراهيم: يا بني إني أرى في المنام وحيًا من الله يطلب مني ذبحك، فانظر ماذا ترى؟ فقد امتثل لأمر الله سبحانه وتعالى وقال إسماعيل صابرًا محتسبًا، مرضيًا لربه، وبارًا بوالده: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ [الصافات: ١٠٢].

أي: امض لما أمرك الله؛ لأني لا أتهمك في شفقتك، وحسن نظرك، ولا أتهم الله في قضائه، ثم قال: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ فأخبر أباه أنه موطن نفسه على الصبر، وقرن ذلك بمشيئة الله تعالى؛ لأنه لا يكون شيء بدون مشيئة الله تعالى، وإنما علق المشيئة لله تعالى على سبيل التبرك والتيمن، فإنه لا حول عن معصية الله إلا بعصمة الله، ولا قوة على طاعة الله إلا بتوفيق الله[2].

٢. الاتباع.

قال تعالى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧].

قال الإمام الرازي: قال تعالى حكاية عن عيسى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ أن مفسرة، والمفسر هو الهاء في به الراجع إلى القول المأمور به، والمعنى: ما قلت لهم إلا قولًا أمرتني به؛ وذلك القول هو أن أقول لهم: اعبدوا الله ربي وربكم، واعلم أنه كان الأصل أن يقال: ما أمرتهم إلا بما أمرتني به، إلا أنه وضع القول موضع الأمر، نزولًا على موجب الأدب الحسن؛ لئلا يجعل نفسه وربه أمرين

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣١/ ٢٩، مدارك التنزيل، النسفي ٤/ ٣٩١.

(٢) انظر: اللباب في بيان الكتاب، ابن عادل ١٦/ ٣٣٠، نظم الدرر، البقاعي ١٦/ ٢٦٤، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٠٥.

Made searchable using ScribeTools.com

معًا، ودل على الأصل بذكر أن المفسرة، ثم قال تعالى: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ أي: كنت أشهد على ما يفعلون ما دمت مقيمًا فيهم، فلما توفيتني والمراد منه: وفاة الرفع إلى السماء، من قوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥].

﴿كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ قال الزجاج: الحافظ عليهم المراقب لأحوالهم ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ من قولي وفعلي، وقولهم وفعلهم[(١)].

وفي ذلك دليل واضح على شدة الاتباع لأمر الحق من قبل سيدنا عيسى عليه السلام فيما أمره الله به من عباده من الدعوة إلى توحيد الله وعبادته.

٣. التبليغ.

قال تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥].

قال الضحاك: وفي قوله: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ وجهان: أحدهما في الأحكام، الثاني في التبليغ.

وقال الإمام أبو الفرج: في ما أمر أن يعدل فيه قولان: أحدهما- في الأحكام إذا ترافعوا إليه، والثاني- في تبليغ الرسالة، وقال البيضاوي: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ أي: في تبليغ الشرائع والحكومات[(٢)].

والمعنى: أمرني ربي أن أعدل بينكم؛ وذلك بتبليغ الشرائع والأحكام، وفصل القضايا عند المحاكمة والخصام، وقيل: معناه لأسوي بيني وبينكم، ولا آمركم بما لا أعمله، ولا أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه، ولا أفرق بين أكابركم وأصاغركم[(٣)].

وعلى المعنى الآخر، قال الطبري: أي: قل لهم يا محمد: وأمرني ربي أن أعدل بينكم معشر الأحزاب، فأسير فيكم جميعًا بالحق الذي أمرني به، وبعثني بالدعاء إليه[(٤)].

٤. طلب التيسير.

قال تعالى: ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ [طه: ٢٦].

قال الطبري: يعني: وسهل علي القيام بما تكلفني من الرسالة، وتحملني من الطاعة، أي: سهل علي ما بعثتني له، ففيها طلب الإعانة لتبليغ الرسالة؛ وذلك لأن كل ما يصدر من العبد من الأفعال والأقوال والحركات والسكنات فما لم يصر العبد مريدًا له استحال أن يصير فاعلًا له، فهذه

(١) انظر: معاني القرآن، الزجاج ٢/ ٢٢٣، مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٤٦٦، مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٤٨٧.

(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٥/ ١٩٩، زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٦٢، أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ٧٩.

(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٨/ ٢٧.

(٤) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٥١٦.

الإرادة صفة محدثة، ولابد لها من فاعل، وفاعلها إن كان هو العبد افتقر في تحصيل تلك الإرادة إلى إرادة أخرى، ولزم التسلسل، بل لابد من الانتهاء إلى إرادة يخلقها مدبر العالم، ففي الحقيقة هو الميسر للأمور[1].

قال ابن كثر: هذا سؤال من موسى عليه السلام لربه عز وجل أن يشرح له صدره فيما بعثه به، فإنه قد أمره بأمر عظيم، وخطبٍ جسيم، فقد بعثه إلى أعظم ملك على وجه الأرض إذ ذاك، وأجبرهم، وأشدهم كفرًا، وأكثرهم جنودًا، وأعمرهم ملكًا، وأطغاهم وأبلغهم تمردًا، بلغ من أمره أن ادعى أنه لا يعرف الله، ولا يعلم لرعاياه إلها غيره.

وفي زيادة كلمة ﴿لِيَ﴾ مع انتظام الكلام بدونها تأكيدٌ لطلب الشرح والتيسير بإبهام الشروح والميسر أولًا وتفسيرهما ثانيًا، وفي تقديمها وتكريرها إظهار مزيد اعتناءٍ بشأن كل من المطلوبين، وفضل اهتمام باستدعاء حصولهما له، واختصاصهما به[2].

ثالثًا: تعامل المؤمنين مع الأمر الإلهي:

يتعامل المؤمن مع الأمر الإلهي، وفق النقاط الآتية:

١. الإيمان بما أمر الله به.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٢١].

قال ابن عباس رضي الله عنه وسعيد بن جبير: معنى: ﴿يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ﴾ أي: الإيمان بجميع الكتب والرسل كلهم، قال القرطبي: والظاهر أنها في صلة الأرحام، وهو قول قتادة وأكثر المفسرين، وهو مع ذلك يتناول جميع الطاعات[3].

وقال صاحب التحرير: «وما أمر الله به أن يوصل عام في جميع الأواصر والعلائق التي أمر الله بالمودة والإحسان لأصحابها، فمنها آصرة الإيمان، ومنها آصرة القرابة، وهي صلة الرحم، وقد اتفق المفسرون على أنها مراد الله هنا»[4].

وقال الإمام النسفي: «﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ من الأرحام والقرابات، ويدخل فيه وصل قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقرابة المؤمنين الثابتة بسبب الإيمان ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

بالإحسان إليهم على حسب الطاقة، ونصرتهم، والذب عنهم، والشفقة عليهم،

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٢٩٩، زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ١٥٧.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٢٨٢ إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ١٢.
(٣) انظر: الوجيز، الواحدي ص٥٧٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٣١٠.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٣/ ١٢٧.

Made searchable using ScribeTools.com

وإفشاء السلام عليهم، وعيادة مرضاهم، ومنه مراعاة حق الأصحاب والخدم والجيران والرفقاء في السفر ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أي: وعيده كله ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ خصوصًا فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا»[1].

وهكذا يتبين لنا أن المؤمن الحقيقي يؤمن بكل ما يأمر الله تعالى به ويخشاه ويخافه.

٢. طلب التيسير.

قال تعالى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠].

قال الطبري: حين أوى الفتية أصحاب الكهف إلى كهف الجبل، هربًا بدينهم إلى الله، فقالوا إذ أووه: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ رغبة منهم إلى ربهم في أن يرزقهم من عنده رحمة، ويسر لنا بما نبتغي وما نلتمس من رضاك والهرب من الكفر بك، ومن عبادة الأوثان التي يدعونا إليها قومنا ﴿رَشَدًا﴾ يقول: سدادًا إلى العمل بالذي تحب، أي: أرشدنا إلى ما يقرب منك، والمعنى: هيئ لنا من أمرنا ما نصيب به الرشد[2].

فقد سألوا الله أن يقدر لهم أحوالًا تكون عاقبتها حصول ما خولهم من الثبات على الدين الحق، والنجاة من مناوئة المشركين؛ وذلك طلب لتيسير أمورهم وأحوالهم، فجمعوا بين السعي والفرار من الفتنة إلى محل يمكن الاستخفاء فيه، وبين تضرعهم وسؤالهم لله تيسير أمورهم، وعدم اتكالهم على أنفسهم وعلى الخلق؛ فلذلك استجاب الله دعاءهم، وقيض لهم ما لم يكن في حسابهم[3]. فالمؤمن الحقيقي يلجأ إلى الله؛ لأن هو من بيده التيسير فهو القادر المقتدر.

٣. الهداية به.

قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦ –١٤٧].

قال ابن القيم: «لما علم القوم أن العدو إنما يدال عليهم بذنوبهم، وأن الشيطان إنما يستزلهم ويهزمهم بها، وأنها نوعان: تقصير في حق، أو تجاوز لحد، وأن النصر منوط بالطاعة، قالوا: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا﴾ قال القاضي: وهذا تأديب من الله تعالى في كيفية الطلب بالأدعية عند النوائب والمحن، سواء كان في الجهاد أو غيره»[4].

(١) مدار التنزيل، النسفي ١/ ٤١٦.
(٢) جامع البيان، ١٧/ ٦٠٥.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٧١.
(٤) زاد المعاد ٣/ ٢٠٢.

وهذا ما وصف به المتقين من قوله: ﴿أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ﴾[آل عمران: ١٣٥].

وقال الإمام الشوكاني: «قوله: ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾ استثناء مفرغ، أي: ما كان قولهم عند أن قتل منهم ربانيون، أو قتل نبيهم إلا أن قالوا: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ قيل: هي الصغائر، وقوله: ﴿وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا﴾ قيل: هي الكبائر، والظاهر: أن الذنوب تعم كل ما يسمى ذنبًا من صغيرة أو كبيرة، والإسراف: ما فيه مجاوزة للحد، فهو من عطف الخاص على العام، قالوا ذلك مع كونهم ربانيين: هضمًا لأنفسهم، ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ في مواطن القتال، ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ تعالى بسبب ذلك ﴿ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ من النصر والغنيمة والعزة ونحوها، ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي: ثواب الآخرة الحسن، وهو نعيم الجنة، جعلنا الله من أهلها، فهم قد ابتهلوا إليه عند نزول المصيبة بقولهم: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا﴾ خشية أن يكون ما أصابهم جزاء على ما فرط منهم، وهكذا استعملوا الأمر في طلب الهداية، والعون من الله»[(١)].

٤. الطاعة والامتثال.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

قال الشوكاني: «أي: ما صح ولا استقام لرجل ولا امرأة من المؤمنين، ولفظ ما كان وما ينبغي ونحوهما معناهما المنع والحظر من الشيء، والإخبار بأنه لا يحل أن يكون شرعًا، وقد يكون لما يمتنع عقلًا، كقوله: ﴿مَا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ﴾ [النمل: ٦٠].

ومعنى الآية: أنه لا يحل لمن يؤمن بالله إذا قضى الله أمرًا أن يختار من أمر نفسه ما شاء، بل يجب عليه أن يذعن للقضاء، ويوقف نفسه على ما قضاه الله عليه، واختاره له»[(٢)].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: لم يكن لمؤمن بالله ورسوله، ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله في أنفسهم قضاء أن يتخيروا من أمرهم غير الذي قضى فيهم، ويخالفوا أمر الله وأمر رسوله وقضاءهما فيعصوهما، ومن يعص الله ورسوله فيما أمرا أو نهيا ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ يقول: فقد جار عن قصد السبيل، وسلك غير سبيل الهدي والرشاد»[(٣)].

وروي في سبب نزول الآية: أنها نزلت في

(١) فتح القدير ١/ ٣٨٧.

(٢) المصدر السابق ٤/ ٣٢٦.

(٣) جامع البيان ٢٠/ ٢٧١.

Made searchable using ScribeTools.com

زينب بنت جحش، وكانت بنت عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم فرضيت ورأت أنه يخطبها على نفسه، فلما علمت أنه يخطبها على زيد بن حارثة أبت وأنكرت، فأنزل الله الآية، قال: فتابعته بعد ذلك ورضيت، وهكذا هو المؤمن الحقيقي يتعامل مع أمر الحق سبحانه وتعالى بالطاعة والامتثال[1].

قال ابن كثير: «هذه الآية عامة في جميع الأمور؛ وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء فليس لأحد مخالفته، ولا اختيار لأحد ها هنا، ولا رأي ولا قول، كما قال تبارك وتعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]»[2].

٥. الاتباع.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢].

قال الطبري: «يعني: وما فعلت يا موسى جميع الذي رأيتني فعلته عن رأيي واختياري، ومن تلقاء نفسي، وإنما فعلته عن أمر الله إياي به، فهو كان عبدًا مأمورًا، فمضى لأمر الله واتبعه»[3].

قال الرازي: «يعني ما فعلت ما رأيت من هذه الأحوال عن أمري واجتهادي ورأيي، وإنما فعلته بأمر الله ووحيه؛ لأن الإقدام على تنقيص أموال الناس وإراقة دمائهم لا يجوز إلا بالوحي والنص القاطع»[4].

فكل ما فعله الخضر فإنما عن أمر من له الأمر، وهو الله، وهكذا كل مؤمن لا يسير خطوة، ولا ينفذ أمرًا إلا متبعًا لأمر الله وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم.

٦. الصبر والتقوى.

قال تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

يخبر تعالى ويخاطب المؤمنين أنهم سيبتلون في أموالهم وفي أنفسهم، وفي إخباره لعباده المؤمنين بذلك عدة فوائد، منها: أنه أخبرهم بذلك لتتوطن نفوسهم على وقوع ذلك، والصبر عليه إذا وقع؛ لأنهم قد استعدوا لوقوعه، فيهون عليهم حمله، وتخف عليهم مؤنته، ويلجئون إلى

(١) المصدر السابق.
(٢) تفسير القرآن الكريم، ٦/ ٤٢٣.
(٣) جامع البيان ١٨/ ٩١.
(٤) مفاتيح الغيب ٢١/ ٤٩٢.

الصبر والتقوى[1].

قال أبو السعود: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا﴾ أي: تتخلقوا بالصبر على تلك الشدائد والبلوى عند ورودها وتقابلوها بحسن التجمل ﴿وَتَتَّقُوا﴾ أي: تتبتلوا إلى الله تعالى بالكلية، معرضين عما سواه بالمرة، بحيث يتساوى عندكم وصول المحبوب ولقاء المكروه ﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الصبر والتقوى، وما فيه من معنى البعد؛ للإيذان بعلو درجتهما، وبعد منزلتهما ﴿مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أي: الأشياء التي هي أهل لأن يعزم على فعلها، ولا يتردد فيه، ولا يعوق عنه عائق[2].

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: ﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ على إساءة إليه، ﴿وَغَفَرَ﴾ للمسيء إليه جرمه إليه، فلم ينتصر منه، وهو على الانتصار منه قادر، ابتغاء وجه الله، وجزيل ثوابه ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ يقول: إن صبره ذلك وغفرانه ذنب المسيء إليه لمن عزم الأمور التي ندب إليه عباده، وعزم عليهم العمل به»[3].

فإن ترك الانتصار للنفس بالقول أو الفعل من أشق شيء عليها، والصبر على الأذى، والصفح عنه ومغفرته، ومقابلته بالإحسان أشق وأشق، ولكنه يسيرٌ على من يسره الله عليه، وجاهد نفسه على الاتصاف به، واستعان الله على ذلك، ثم إذا ذاق العبد حلاوته، ووجد آثاره، تلقاه برحب الصدر، وسعة الخلق، والتلذذ فيه[4].

قال صاحب التحرير: «وهذا ترغيب في العفو والصبر على الأذى؛ وذلك بين الأمة الإسلامية ظاهر، وأما مع الكافرين فتعتريه أحوال تختلف بها أحكام الغفران، وملاكها أن تترجح المصلحة في العفو أو في المؤاخذة»[5].

رابعًا: تعامل الكافرين والمنافقين مع الأمر الإلهي:

يتعامل الكافرون والمنافقون مع الأمر الإلهي بالرفض والامتناع، ويتضح ذلك كما يلي:

١. العتو.

﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٧].

قال البيضاوي: «فهذه الآية صفة للفاسقين للذم وتقرير الفسق، ثم قال مبينًا

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٦٠.
(٢) إرشاد العقل السليم، ٢/ ١٢٤.
(٣) جامع البيان ٢١/ ٥٥١.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٦٠.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ١٢٣.

Made searchable using ScribeTools.com

تعامل هؤلاء مع ما أمر الله به بعد أن بين نقضهم للعهود والمواثيق فقال: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ يحتمل كل قطيعة لا يرضاها الله تعالى، كقطع الرحم، والإعراض عن موالاة المؤمنين، والتفرقة بين الأنبياء عليهم السلام، والكتب في التصديق، وترك الجماعات المفروضة، وسائر ما فيه رفض خير، أو تعاطي شر، فإنه يقطع الوصلة بين الله وبين العبد المقصودة بالذات من كل وصل وفصل ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بالمنع عن الإيمان، والاستهزاء بالحق، وقطع الوصل التي بها نظام العالم وصلاحه»[(١)].

فقوله عز وجل: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ فيه ثلاثة تأويلات: قال الماوردي: أحدها: أن الذي أمر الله تعالى به أن يوصل هو رسوله، فقطعوه بالتكذيب والعصيان، وهو قول الحسن البصري، والثاني: أنه الرحم والقرابة، وهو قول قتادة، والثالث: أنه على العموم في كل ما أمر الله تعالى به أن يوصل[(٢)].

فقوله: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ عام في كل قطيعة لا يرضاها الله، كقطع الرحم، والإعراض عن موالاة المؤمنين، وترك الجماعات المفروضة، وعدم وصل الأقوال الطيبة بالأعمال الصالحة، وسائر ما فيه رفض خير، أو تعاطي شر[(٣)]. وجعل الآية عامة في كل قطيعة لا يرضاها الله هو الأولى والراجح في نظري؛ فالعبرة بعموم اللفظ كما على ذلك جمهور المفسرين.

ونظير تلك الآية قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥].

٢. التكذيب.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨].

قال الإمام الطبري: «كان قبيلة من العرب من أهل اليمن يطوفون بالبيت عراة، فإذا قيل: لم تفعلون ذلك؟ قالوا: وجدنا عليها آباءنا، والله أمرنا بها، فتأويل الكلام إذًا: وإذا فعل الذين لا يؤمنون بالله الذين جعل الله الشياطين لهم أولياء قبيحًا من الفعل، وهو الفاحشة، وذلك تعريهم للطواف بالبيت وتجردهم له، فعذلوا على ما أتوا من قبيح فعلهم، وعوتبوا عليه، قالوا: وجدنا على مثل ما نفعل آباءنا، فنحن نفعل مثل ما كانوا يفعلون، ونقتدي بهديهم، ونستن بسنتهم،

(١) أنوار التنزيل ١/ ٦٥.
(٢) النكت والعيون، ١/ ٨٩.
(٣) الوسيط، طنطاوي ١/ ٨٧.

والله أمرنا به، فنحن نتبع أمره فيه»[١].

فقيل لهم: يعني أنكم سمعتم كلام الله تعالى ابتداءً من غير واسطة، ولا أخذتموه عن الأنبياء الذين هم وسائط بين الله تعالى وبين عباده في تبليغ أوامره ونواهيه وأحكامه؛ لأنكم تنكرون نبوة الأنبياء؛ فكيف تقولون على الله ما لا تعلمون؟[٢].

فليس المراد أن القوم كانوا يسلمون كون تلك الأفعال فواحش، ثم كانوا يزعمون أن الله أمرهم بها، فإن ذلك لا يقوله عاقل، بل المراد أن تلك الأشياء كانت في أنفسها فواحش، والقوم كانوا يعتقدون أنها طاعات، وأن الله أمرهم بها، ثم إنه تعالى حكى عنهم أنهم كانوا يحتجون على إقدامهم على تلك الفواحش بأمرين:

أحدهما: إنا وجدنا عليها آباءنا.

والثاني: إن الله أمرنا بها...

وأما الحجة الثانية: وهي قولهم: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ فقد أجاب عنه بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ والمعنى: أنه ثبت على لسان الأنبياء والرسل كون هذه الأفعال منكرة قبيحة فكيف يمكن القول بأن الله تعالى أمرنا بها؟[٣].

(١) جامع البيان ١٢/ ٣٧٩.
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ١٩٢.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٢٢٥.

٣. النفور.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [الفرقان: ٦٠].

يقول تعالى منكرًا على المشركين الذين يسجدون لغير الله من الأصنام والأنداد: اسجدوا واخضعوا وتذللوا للرحمن، فالسجود الذي أمروا به سجود الاعتراف له بالوحدانية، وهو شعار الإسلام، ولم يكن السجود من عبادة مشركي قريش، وإنما كانوا يطوفون بالأصنام، ومقصدهم من ذلك إباء السجود لله؛ لأن السجود الذي أمروا به سجود لله بنية انفراد الله به دون غيره، وهم لا يجيبون إلى ذلك، ويدل على ذلك قوله: ﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ فالنفور من السجود سابق قبل سماع اسم الرحمن، وزادهم ذكر الرحمن نفورًا أي: تباعدًا من الإيمان[٤].

أما المؤمنون فإنهم يعبدون الله الذي هو الرحمن الرحيم، ويفردونه بالإلهية، ويسجدون له، وكان سفيان الثوري يقول في هذه الآية: إلهي زادني لك خضوعًا ما زاد عداك نفورًا، وكأنهم يقولون: تأمرنا بألا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئًا، وتريد أن تأمرنا أيضًا بأن نسجد لهذا الرحمن.

قال الطبري: يعني وزاد هؤلاء المشركين

(٤) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٣٢٦.

Made searchable using ScribeTools.com

قول القائل لهم: اسجدوا للرحمن من إخلاص السجود لله، وإفراد الله بالعبادة بعدًا مما دعوا إليه من ذلك فرارًا[1].

خامسًا: تعامل إبليس وذريته مع الأمر الإلهي:

تعامل إبليس مع الأمر الإلهي يتمثل فيما يلي:

١. الكبر والغرور.

قال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

قال العلماء: الذي أحوجه إلى ترك السجود هو الكبر والحسد، وكان أضمر ذلك في نفسه إذا أمر بذلك، وقال الإمام النسفي: «والسؤال عن المانع من السجود مع علمه به للتوبيخ ولإظهار معاندته وكفره وكبره»[2].

فقد كان أمره من قبل خلق آدم، يقول الله تعالى: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [ص: ٧١-٧٢].

فكأنه دخله أمر عظيم من قوله: ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ فإن في الوقوع توضيع الواقع وتشريفًا لمن وقع له، فأضمر في نفسه ألا يسجد إذا أمره في ذلك الوقت، فلما نفخ فيه الروح وقعت الملائكة سجدًا، وبقي هو قائمًا بين أظهرهم، فأظهر بقيامه وترك السجود ما في ضميره. . .، قلت: يعني من الكبر والاستكبار لأمر الله.

ثم قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ أي: منعني من السجود فضلي عليه، فهذا من إبليس جواب على المعنى، فليس هذا عين الجواب، بل هو كلام يرجع إلى معنى الجواب ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

فرأى أن النار أشرف من الطين؛ لعلوها وصعودها وخفتها؛ ولأنها جوهر مضيء.

قال ابن عباس رضي الله عنه والحسن وابن سيرين: أول من قاس إبليس، فأخطأ القياس، فمن قاس الدين برأيه قرنه مع إبليس، قال ابن سيرين: وما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس، وقالت الحكماء: أخطأ عدو الله من حيث فضل النار على الطين، وإن كانا في درجة واحدة من حيث هي جماد مخلوق[3].

فهو مما لاشك فيه أول من أسس بنيان التكبر والمعاندة والعصيان للأوامر الإلهية؛ ولأن الباعث على قوله هذا التكبر، وليس الدليل؛ لذلك قال الله تعالى له: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ

(١) الطبري ١٩/ ٢٨٨ وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٣/ ٦٤ وتفسير أبي زهرة ١٠/ ٥٣٠٧.
(٢) مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٥٥٧.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ١٧١.

مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ [الأعراف ١٣].

٢. الرفض والخروج على أوامر الله.

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۚ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌۢ ۖ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٠].

فقوله: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ يعني: فخرج عن أمر ربه، وعدل عنه ومال، وعن مجاهد في قول الله تعالى: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ قال: في السجود لآدم، فالمعنى: أنه: عتا وعصى، وأصل الفسق: الخروج، أي: خرج عن أمر ربه، وكذلك قال القتبي: ففسق، أي: خرج عن طاعته، يقال: فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرتها، يعني: أنه خرج عن أمر ربه إلى معصيته في ترك السجود، وذكر هذا الزمن بأحداثه وما قيل فيه استحضار لصورته، وكيف عصى إبليس ربه، وعاند في الخضوع لأمر الله تعالى بالنسبة لآدم[١].

قال الإمام الشعراوي: «لقد جاء القرآن بالنص الصريح الذي يوضح جنسيته، فليس لأحد أن يقول: إنه من الملائكة، وما دام كان من الجن، وهم جنس مختار في أن يفعل أو لا يفعل، فقد اختار ألا يفعل: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠].

أي: رجع إلى أصله، وخرج عن الأمر، أي: فخرج بذلك عن طاعتنا، واستحق لعنتنا وغضبنا»[٢].

سادسًا: جزاء اتباع الأمر الإلهي في الدنيا والآخرة:

١. الفلاح في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

ففي الآية السابقة حثٌّ لأتباع أمة النبي محمد على الأمر بالمعروف والنهي والمنكر، والمراد بالأمة هنا الطائفة من الناس التي تصلح لمباشرة الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والمعروف ما حسنه الشرع، وتعارف العقلاء على حسنه، والمنكر ضد ذلك، كما أن الآية تومئ إلى الحث على الدعوة إلى ما يصلح من شأن الناس، من خلال أمرهم بالتمسك بالتعاليم وبالأخلاق التي توافق الكتاب والسنة والعقول السليمة، ونهيهم عن المنكر الذي يأباه شرع الله، وتنفر منه الطباع الحسنة؛ ولقد أعد الله لمن يفعلون ذلك الفلاح في الدنيا والآخرة، فقال تعالى: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ أي:

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٧/ ١٨٥.

(٢) تفسير الشعراوي ١٤/ ٨٩٣٥.

Made searchable using ScribeTools.com

هؤلاء هم المختصون بالفلاح الكامل، فقد ختم سبحانه الآية الكريمة بتبشير هؤلاء ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ والفلاح هو الظفر، وإدراك البغية، أي: وأولئك القائمون بواجب الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هم الكاملون في الفلاح والنجاح، ولا يمكن أن يفلح سواهم ممن لم يقم بهذا الواجب الذي هو مناط عزة الجماعات والأفراد، وأساس رفعتهم وقوتهم وسعادتهم[1].

وقد روى الإمام مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **(من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان)**[2].

٢. الصلاح.

قال تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٤].

يقول الإمام النسفي: «وأولئك الموصوفون بما وصفوا به من الصالحين، أي: من المسلمين، أو من جملة الصالحين الذين صلحت أحوالهم عند الله، ورضيهم، واستحقوا رضاه وثناءه»[3].

وهذا غاية المدح من وجهين:

الأول: أن الله مدح بهذه الصفة أكابر الأنبياء، فقال بعد ذكر إسماعيل وإدريس وذي الكفل وغيرهم: ﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا ۖ إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٦].

وقال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التحريم: ٤].

الثاني: أن الصلاح ضد الفساد، فكل ما لا ينبغي أن يكون فهو فساد، سواء أكان ذلك في العقائد أم في الأعمال، وإذا كان كذلك كان كل ما ينبغي أن يكون صلاحًا، فكان الصلاح دالًا على أكمل الدرجات[4].

قال القفال: ولا يبعد أن يقال: المراد: كل من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم فسماهم الله بأهل الكتاب، كأنه قيل: أولئك الذين سموا أنفسهم بأهل الكتاب حالهم وصفتهم تلك الخصال الذميمة، والمسلمون الذين سماهم الله بأهل الكتاب حالهم وصفتهم هكذا، فكيف يستويان؟ فيكون الغرض -من هذه الآية- تقرير فضيلة أهل الإسلام، تأكيدًا لما تقدم من قوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل

(١) التفسير الوسيط، طنطاوي ١٢/ ٢٠٢.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان، ١/ ٦٩، رقم ٤٩.
(٣) مدارك التنزيل ١/ ٢٨٤.
(٤) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٥/ ٤٨١.

عمران: ١١٠].

ونظيره قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ﴾ [السجدة: ١٨].

منهم: ﴿أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٣].

قيل: قائمة في الصلاة، يتلون آيات الله، فعبر بذلك عن تهجدهم[(١)].

٣. الفوز.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [: ٥٢].

يقول الإمام الطبري: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فيما أمره ونهاه، ويسلم لحكمهما له وعليه، ويخف عاقبة معصية الله ويحذره، ويتق عذاب الله بطاعته إياه في أمره ونهيه ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ يقول: فالذين يفعلون ذلك ﴿هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ برضا الله عنهم يوم القيامة، وأمنهم من عذابه[(٢)].

وذكر أن عمر رضي الله عنه بينما هو قائم في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم وإذا رجل من دهاقين الروم قائم على رأسه، وهو يقول: أنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله، فقال له عمر: ما شأنك؟ قال: أسلمت لله، قال: هل لهذا سبب؟! قال: نعم! إني قرأت التوراة والزبور والإنجيل وكثيرًا من كتب الأنبياء، فسمعت أسيرًا يقرأ آية من القرآن جمع فيها كل ما في الكتب المتقدمة، فعلمت أنه من عند الله فأسلمت: قال: ما هذه الآية؟ قال: قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ﴾ في الفرائض ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ في السنن ﴿وَيَخْشَ ٱللَّهَ﴾ فيما مضى من عمره ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ فيما بقي من عمره ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ والفائز من نجا من النار وأدخل الجنة، فقال عمر: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (أوتيت جوامع الكلم)[(٣)].

فهذه الآية جامعة لأسباب الفوز والنجاح والفلاح، فقوله: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ يعني: الذين فازوا بكل خير، وأمنوا من كل شر في الدنيا والآخرة[(٤)].

يقول صاحب الظلال: «وعد الله ولن يخلف الله وعده، وهم للفوز أهل، ولديهم أسبابه من واقع حياتهم، فالطاعة لله ورسوله تقتضي السير على النهج القويم الذي رسمه الله للبشرية عن علم وحكمة، وهو بطبيعته يؤدي إلى الفوز في الدنيا والآخرة، وخشية الله وتقواه هي الحارس الذي يكفل الاستقامة على النهج، وإغفال المغريات التي تهتف بهم على جانبيه، فلا ينحرفون ولا يلتفتون، وأدب الطاعة لله ورسوله، مع خشية الله وتقواه، أدب رفيع، ينبئ عن مدى

(١) المصدر السابق ٥/ ٤٨١.
(٢) جامع البيان ١٩/ ٢٠٦.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٢٩٥.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٧٥.

Made searchable using ScribeTools.com

إشراق القلب بنور الله، واتصاله به، وشعوره بهيبته، كما ينبئ عن عزة القلب المؤمن واستعلائه، فكل طاعة لا ترتكن على طاعة الله ورسوله، ولا تستمد منها، هي ذلة يأباها الكريم، وينفر منها طبع المؤمن، ويستعلي عليها ضميره، فالمؤمن الحق لا يحني رأسه إلا لله الواحد القهار»[1].

٤. طيب الحياة.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

ففي الآية السابقة حثٌّ للمؤمنين على الاستجابة لأمر الرسول إذا دعاهم إلى شيء، فإن في الاستجابة لأمره إحياءً للنفوس، واختير في تعريفهم عند النداء وصف الإيمان ليومئ إلى أن الإيمان هو الذي يقتضي أن يثقوا بعناية الله بهم، فيمتثلوا أمره إذا دعاهم، وليس قوله: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ قيدًا للأمر باستجابة، ولكنه تنبيه على أن دعاءه إياهم لا يكون إلا إلى ما فيه خير لهم، وإحياء لأنفسهم[2].

والمعنى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله حق الإيمان ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ عن طواعية واختيار، ونشاط وحسن استعداد ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ أي: إلى ما يصلح أحوالكم، ويرفع درجاتكم، من الأقوال النافعة، والأعمال الحسنة، التي بالتمسك بها تحيون حياة طيبة، وتظفرون بالسعادتين الدنيوية والأخروية[3].

فأجيبوا دعوته بقوة وعزم، كما قال في آية أخرى: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: ٦٣].

وطاعته صلى الله عليه وسلم واجبة في حياته، وبعد مماته فيما علم أنه دعا إليه دعوة عامة من أمور الدين الذي بعثه الله به، كبيانه لصفة الصلاة وعددها قولًا أو فعلًا، فقد صلى بأصحابه وقال: (صلوا كما رأيتموني أصلي)[4].

وقال: (خذوا عني مناسككم)[5].

وبيانه لمقادير الزكاة وغيرها من السنن العملية المتواترة وأقواله كذلك، فكل من ثبت لديه شيء منها ببحثه أو بحث العلماء الذين يثق بهم وجب عليه الاهتداء به[6].

والضمير في قوله: ﴿دَعَاكُمْ﴾ يعود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه هو المباشر للدعوة إلى الله؛ ولأن في الاستجابة

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٥٢٧.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ٣١١.
(٣) التفسير الوسيط، طنطاوي ٢/ ٧٣.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، ٨/ ٩، ٦٠٠٨.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر، ٢/ ٩٤٣، رقم ١٢٩٧.
(٦) تفسير المراغي ٩/ ١٨٧.

له استجابة لله تعالى.

قال سبحانه: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠][1].

تكلم الإمام ابن القيم كلامًا نفيسًا حول هذه الآية فقال رحمه الله: «إن الحياة النافعة إنما تحصل بالاستجابة لله ولرسوله، فمن لم تحصل له هذه الاستجابة فلا حياة له، وإن كانت له حياة بهيمية مشتركة بينه وبين أرذل الحيوانات، فالحياة الحقيقية الطيبة هي حياة من استجاب لله ولرسوله ظاهرًا وباطنًا، فهؤلاء هم الأحياء، وإن ماتوا، وغيرهم أموات وإن كانوا أحياء الأبدان؛ ولهذا كان أكمل الناس حياة أكملهم استجابة لدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم، فإن كل ما دعا إليه ففيه الحياة، فمن فاته جزء منه فاته جزء من الحياة، وفيه من الحياة بحسب ما استجاب للرسول»[2].

الأمر الإنساني وجزاء اتباعه

بين القرآن الكريم أوامر الإنسان، سواء كان من الرسل أو المؤمنين أو المنافقين أو الجبابرة والمسرفين، وبين جزاء اتباع هذه الأوامر، وسوف نتناول هذه الأوامر بالبيان فيما يأتي:

أولًا: أوامر الرسل عليهم السلام:

الرسل أرسلهم الحق سبحانه وتعالى لإسعاد الناس وهدايتهم؛ ولذلك يمكن إبراز أوامر الرسل كما يلي:

١. عبادة الله واجتناب عبادة الطاغوت.

قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

إن من الطبيعي أن يكون أول أمر للرسل لأقوامهم الأمر بعبادة الله وحده، وهذا ما جسده النبي صلى الله عليه وسلم.

يقول الإمام الألوسي: «﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ جليل الشأن وهو الله سبحانه، ويطيعوا أمره ولا يطيعوا أمر غيره بخلافه، فإن ذلك مناف

(١) التفسير الوسيط، طنطاوي ٢/ ٧٣.
(٢) التفسير القيم ١/ ٢٩٨.

Made searchable using ScribeTools.com

لعبادته جل شأنه، وأما إطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم وسائر من أمر الله بطاعته فهي في الحقيقة إطاعة لله عز وجل، وما أمر الذين اتخذهم الكفرة أربابًا من المسيح عليه السلام والأحبار والرهبان إلا ليطيعوا أو ليوحدوا الله تعالى، فكيف يصح أن يكونوا أربابًا وهم مأمورون مستعبدون مثلهم؟! ولا يخفى أن تخصيص العبادة به تعالى لا يتحقق إلا بتخصيص الطاعة أيضًا به تعالى، ومتى لم يخص به جل شأنه لم تخص العبادة به سبحانه ﴿سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزيه له، أي: تنزيه عن الإشراك به في العبادة والطاعة، والمراد بالآية: اتخذ كل من الفريقين علماءهم -لا الكل- أربابًا من دون الله بأن أطاعوهم في تحريم ما أحل الله تعالى، وتحليل ما حرمه سبحانه، وهو التفسير المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فالآية ناعية على كثير من الفرق الضالة الذين تركوا كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم لكلام علمائهم ورؤسائهم، والحق أحق بالاتباع، فمتى ظهر وجب على المسلم اتباعه»[1].

فهو اتهام لهم، وكشف عن وجه من وجوه الضلال الذي ركبوه، وهو أنهم انقادوا لأحبارهم ورهبانهم، وجعلوا لهم الكلمة فيهم، والعقل المدبر لهم، فكلمة الأحبار والرهبان لهم هي الكلمة التي لا معقب عليها عندهم، حتى لكأنها كلمات الله عند المؤمنين بالله[2].

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾[الفرقان: ٦٠].

وكأنهم يقولون: تأمرنا بألا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئًا، وتريد أن تأمرنا أيضًا بأن نسجد لهذا الرحمن، كأن المسألة بيننا وبينك ليس أمر التوحيد تدعو إليه، إنما أنت تعادي آلهتنا بآلهة أخرى، ومرماهم أنك تتحكم في عبادتنا، ولا تخالفنا في شركنا[3].

فالآية الكريمة تحكي ما جبل عليه أولئك المشركون من استهتار وتطاول وسوء أدب، عندما يدعوهم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى إخلاص العبادة لله عز وجل، وإلى السجود للرحمن الذي تعاظمت رحماته، وتكاثرت آلاؤه، ولقد بلغ من تطاول بعضهم أنهم كانوا يقولون: ما نعرف الرحمن إلا ذاك الذي باليمامة، يعنون به مسيلمة الكذاب[4].

٢. الإخلاص.

قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ

(١) روح المعاني ١/ ٧٥.

(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ٥/ ٧٤٣.

(٣) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٤/ ٥٣٠٧.

(٤) التفسير الوسيط، طنطاوي ١٠/ ٢١٥.

﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البينة: ٥].

يقول الإمام أبو الفرج الجوزي: والمعنى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ إلا أن يعبدوا الله، موحدين لا يعبدون سواه، ﴿حُنَفَآءَ﴾ على دين إبراهيم، ﴿وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المكتوبة في أوقاتها، ﴿وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ عند وجوبها؛ وذلك الذي أمروا به هو دين القيمة، قال الزجاج: أي دين الأمة القيمة بالحق، ويكون المعنى: ذلك الدين دين الملة المستقيمة[١].

قال الإمام ابن العربي: «أمر الله عباده بعبادته، وهي أداء الطاعة له بصفة القربة؛ وذلك بإخلاص النية بتجريد العمل عن كل شيء إلا لوجهه؛ وذلك هو الإخلاص، وإذا ثبت هذا فالنية واجبة في التوحيد؛ لأنها عبادة، فدخلت تحت هذا العموم دخول الصلاة»[٢].

يقول الإمام الرازي: «فثبت أن المراد: وما أمروا إلا أن يعبدوا الله مخلصين له الدين، والإخلاص عبارة عن النية الخالصة، والنية الخالصة لما كانت معتبرة كانت النية معتبرة، فقد دلت الآية على أن كل مأمور به فلابد وأن يكون منويًا. . .»[٣] ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ١١].

﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١].

ويقول الإمام النسفي: «والإخلاص عبارة عن النية الخالصة، وتجريدها عن شوائب الرياء، وهو تنبيه على ما يجب من تحصيل الإخلاص من ابتداء الفعل إلى انتهائه، والمخلص هو الذي يأتي بالحسن لحسنه، والواجب لوجوبه، والنية الخالصة لما كانت معتبرة كانت النية معتبرة، فقد دلت الآية على أن كل مأمور به فلابد وأن يكون منويًا، فلابد من اعتبار النية في جميع المأمورات»[٤].

فالإخلاص: التصفية والإنقاء، أي: غير مشاركين في عبادته معه غيره، وحنفاء: جمع حنيف، وهو لقب للذي يؤمن بالله وحده دون شريك، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١].

وهذا الوصف تأكيد لمعنى: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، مع التذكير بأن ذلك هو دين إبراهيم عليه السلام الذي ملئت التوراة بتمجيده، واتباع هديه.

فمن أهم وأعظم ما بعثه الله به من الأمر بعبادته وحده لا شريك له، والنهي عن عبادة

(١) انظر: معاني القرآن، الزجاج ٢/ ٣٥٠، زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٤٧٦.
(٢) انظر: أحكام القرآن، ابن العربي ٤/ ٦٤٣.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب، ٢٢/ ٢٤٢.
(٤) انظر: مدارك التنزيل ٤/ ٤٥٥.

Made searchable using ScribeTools.com

من سواه، كما أرسل به جميع الرسل قبله، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦][(١)].

٣. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

يبين القرآن صفة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في كتب الأنبياء الذين بشروا أممهم ببعثته، وأمروهم بمتابعته، ولم تزل صفاته موجودة في كتبهم، يعرفها علماؤهم وأحبارهم، فقال: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

فمن صفة الرسول صلى الله عليه وسلم في الكتب المتقدمة، وهكذا كان حاله صلى الله عليه وسلم أنه لا يأمر إلا بخير، ولا ينهى إلا عن شر، كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: إذا سمعت الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فأرعها سمعك، فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه.

والمعروف ما تعرف العقول السليمة حسنه، وترتاح القلوب الطاهرة له لنفعه وموافقته للفطرة والمصلحة، بحيث لا يستطيع العاقل المنصف السليم الفطرة أن يرده، أو يعترض عليه إذا ورد الشرع به، والمنكر ما تنكره العقول السليمة، وتنفر منه القلوب، وتأباه على الوجه المذكور أيضًا[(٢)].

٤. القتال.

قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [: ٥٣].

يقول الإمام الطبري: يقول تعالى ذكره يعني: وحلف هؤلاء المعرضون عن حكم الله وحكم رسوله إذ دعوا إليه ﴿بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ يعني: بأغلظ أيمانهم وأشدها ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ﴾ يا محمد بالخروج إلى جهاد عدوك وعدو المؤمنين، أي: إذا أمرتهم بالقتال والاستعداد له ﴿لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا﴾ لا تحلفوا، فإن هذه ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ منكم فيها التكذيب، يعني: قل لهم -أيها الرسول الكريم- على سبيل السخرية والزجر، لا تقسموا على ما تقولون، فإن طاعتكم معروف أمرها، ومفروغ منها، فهي طاعة باللسان فقط.

أما الفعل فيكذبها؛ وذلك أن المنافقين

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٤٨١.

(٢) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ٩/ ١٩٧.

كانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أينما كنت نكن معك، لئن خرجت خرجنا، وإن أقمت أقمنا، وإن أمرتنا بالجهاد جاهدنا. . .، ثم قال الحق: إن الله ذو خبرة بما تعملون من طاعتكم الله ورسوله، أو خلافكم أمرهما، أو غير ذلك من أموركم، لا يخفى عليه من ذلك شيء، وهو مجازيكم بكل ذلك[1].

٥. ثمرة الشورى.

يقول تعالى مخاطبًا النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

يقول الإمام الطبري: «اختلف أهل التأويل في المعنى الذي من أجله أمر تعالى ذكره نبيه صلى الله عليه وسلم أن يشاورهم، وما المعنى الذي أمره أن يشاورهم فيه؟

فقال بعضهم: أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ بمشاورة أصحابه في مكايد الحرب، وعند لقاء العدو، تطييبًا منه بذلك أنفسهم، وتألفًا لهم على دينهم؛ وليروا أنه يسمع منهم، ويستعين بهم، وإن كان الله عز وجل قد أغناه بتدبيره له أموره، وسياسته إياه وتقويمه أسبابه عنهم، فأمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم أن يشاور أصحابه في الأمور، وهو يأتيه وحي السماء؛ لأنه أطيب لأنفس القوم، وأن القوم إذا شاور بعضهم بعضًا، وأرادوا بذلك وجه الله، عزم لهم على أرشده»[2].

وقال آخرون: إنما أمره الله بمشاورة أصحابه فيما أمره بمشاورتهم فيه، مع إغنائه بتقويمه إياه، وتدبيره أسبابه عن آرائهم، ليتبعه المؤمنون من بعده فيما حزبهم من أمر دينهم، ويستنوا بسنته صلى الله عليه وسلم في ذلك، ويحتذوا المثال الذي رأوه يفعله في حياته من مشاورته في أموره -مع المنزلة التي هو بها من الله- أصحابه وأتباعه في الأمر ينزل بهم من أمر دينهم ودنياهم، فيتشاوروا بينهم، ثم يصدروا عما اجتمع عليه ملؤهم؛ لأن المؤمنين إذا تشاوروا في أمور دينهم متبعين الحق في ذلك لم يخلهم الله عز وجل من لطفه وتوفيقه للصواب من الرأي والقول فيه، قالوا: وذلك نظير قوله عز وجل الذي مدح به أهل الإيمان: ﴿وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الشورى: ٣٨].

ثم قال: وأولى الأقوال بالصواب في ذلك أن يقال: إن الله عز وجل أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بمشاورة أصحابه فيما حزبه من أمر عدوه، ومكايد حربه، تألفًا منه بذلك من لم تكن بصيرته بالإسلام البصيرة التي

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٠٦، معالم التنزيل، البغوي ٦/ ٥٧.

(٢) جامع البيان ٧/ ٣٤٤.

Made searchable using ScribeTools.com

يؤمن عليه معها فتنة الشيطان وتعريفًا منه أمته مأتى الأمور التي تحزبهم من بعده ومطلبها؛ ليقتدوا به في ذلك عند النوازل التي تنزل بهم، فيتشاوروا فيما بينهم، كما كانوا يرونه في حياته صلى الله عليه وسلم يفعله، فأما النبي صلى الله عليه وسلم فإن الله كان يعرفه مطالب وجوه ما حزبه من الأمور بوحيه، أو إلهامه إياه صواب ذلك، وأما أمته فإنهم إذا تشاوروا مستنين بفعله في ذلك على تصادقٍ وتآخٍ للحق، وإرادة جميعهم للصواب، من غير ميل إلى هوى، ولا حيد عن هدى، فالله مسددهم وموفقهم[1].

٦. الأمر بالصلاة والزكاة.

قال تعالى: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٥].

يقول الإمام الرازي: «قوله: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ والأقرب في الأهل أن المراد به من يلزمه أن يؤدي إليه الشرع، فيدخل فيه كل أمته من حيث لزمه في جميعهم ما يلزم المرء في أهله خاصة، هذا إذا حمل الأمر على المفروض من الصلاة والزكاة، فإن حمل على الندب فيهما كان المراد أنه كما كان يتهجد بالليل يأمر أهله، أي: من كان في داره في ذلك الوقت بذلك، وكان نظره لهم في الدين يغلب على شفقته عليهم في الدنيا، بخلاف ما عليه أكثر الناس، وقيل: كان يبدأ بأهله في الأمر بالصلاح والعبادة ليجعلهم قدوة لمن سواهم.

كما قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢].

﴿قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦].

وأيضًا فهم أحق أن يتصدق عليهم، فوجب أن يكونوا بالإحسان الديني أولى، فأما الزكاة فعن ابن عباس رضي الله عنه أنها طاعة الله تعالى والإخلاص، فكأنه تأوله على ما يزكو به الفاعل عند ربه، والظاهر أنه إذا قرنت الزكاة إلى الصلاة أن يراد بها الصدقات الواجبة، وكان يعرف من خاصة أهله أن يلزمهم الزكاة، فيأمرهم بذلك، أو يأمرهم أن يتبرعوا بالصدقات على الفقراء، ورابعها: قوله: ﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ وهو في نهاية المدح؛ لأن المرضي عند الله هو الفائز في كل طاعاته بأعلى الدرجات»[2].

ثانيًا: أوامر المؤمنين:

لاشك أن أوامر المؤمنين ستكون متفقة مع المنهج النبوي الذي يحقق السعادة لمتبعها في الدنيا والآخرة، ويمكن إيضاح أوامر المؤمنين كما يلي:

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٣٤٤، زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ٣٤١.

(٢) مفاتيح الغيب ٢١/ ٥٥٠.

١. الأمر بالمعروف.

قال تعالى متحدثًا عن صفات المؤمنين: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

يذكر الحق سبحانه أوصاف المؤمنين وأعمالهم الحسنة، وما أعد لهم من أنواع الكرامات والخيرات في الدنيا والآخرة، فمن أوصافهم: أنهم يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، فقال تعالى: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ أي: يأمرون الناس بكل خيرٍ وجميلٍ يرضي الله، وينهونهم على كل قبيح يسخط الله، فهم على عكس المنافقين الذين يأمرون بالمنكر، وينهون عن المعروف(١).

وهذا ما أمر به لقمان ابنه بقوله: ﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

فالمؤمن الحقيقي يتخذ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أساسًا ومنهجًا له بضوابط وأصول الشرع.

٢-٣. الصدقة والإصلاح بين الناس.

قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤].

فقوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ﴾ قيل المراد بهم: قوم طعمة، وقال مجاهد: الآية عامة في حق جميع الناس، والنجوى: هي الإسرار في التدبير، وقيل: النجوى ما ينفرد بتدبيره قوم سرًا كان أو جهرًا، فمعنى الآية: لا خير في كثير مما يدبرونه بينهم، والله تعالى جعل النجوى مظنة الإثم والشر غالبًا، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المجادلة: ٩].

﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ أي: إلا في نجوى من أمر بصدقة، فالنجوى تكون فعلًا، وقيل: هذا استثناء منقطع، يعني: لكن من أمر بصدقة، وقيل: النجوى ها هنا الرجال المتناجون، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ [الإسراء: ٤٧].

﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ أي: حث عليها ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ أي: بطاعة الله وما يعرفه الشرع، وأعمال البر كلها معروف؛ لأن العقول تعرفها.

فينبغي لمن يقدر على إسداء المعروف أن يعجله حذار فواته، ويبادر به خيفة عجزه؛

(١) صفوة التفاسير، الصابوني ١/ ٥٠٩.

Made searchable using ScribeTools.com

وليعلم أنه من فرض زمانه، وغنائم إمكانه، ولا يهمله ثقة بالقدرة عليه، فكم من واثق بالقدرة، ففاتت، فأعقبت ندمًا.

ويقول الإمام الرازي: وإنما ذكر الله هذه الأقسام الثلاثة، وذلك لأن عمل الخير إما أن يكون بإيصال المنفعة، أو بدفع المضرة، أما إيصال الخير، فإما أن يكون من الخيرات الجسمانية، وهو إعطاء المال، وإليه الإشارة بقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ وإما أن يكون من الخيرات الروحانية، وهو عبارة عن تكميل القوة النظرية بالعلوم، أو تكميل القوة العملية بالأفعال الحسنة، ومجموعهما عبارة عن الأمر بالمعروف، وإليه الإشارة بقوله: ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ وأما إزالة الضرر، فإليها الإشارة بقوله: ﴿أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ فثبت أن مجامع الخيرات مذكورة في هذه الآية[1].

فلقد حض القرآن على الإصلاح بين الناس سواء أكانوا جماعات أم أفرادًا؛ لأن التخاصم والتنازع يؤدي إلى انتشار العداوات والمفاسد بين الناس، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[الحجرات: ٢١].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصدقة والصلاة؟) قال: قلنا: بلى، قال: (إصلاح ذات البين، وفساد ذات البين هي الحالقة)**[2].

٤. ثمرة الشورى.

قال: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨].

يقول الإمام ابن عاشور: «فإذ قد كانت الشورى مفضية إلى الرشد والصواب، وكان من أفضل آثارها أن اهتدى بسببها الأنصار إلى الإسلام؛ أثنى الله بها على الإطلاق دون تقييد بالشورى الخاصة التي تشاور بها الأنصار في الإيمان، وأي أمر أعظم من أمر الإيمان»[3].

فمن ثمرة أمرهم بالشورى: أنه لا يستبد أحد منهم برأيه في أمر من الأمور المشتركة بينهم، وهذا لا يكون إلا فرعًا عن اجتماعهم وتوالفهم وتواددهم وتحابيهم، وكمال عقولهم، أنهم إذا أرادوا أمرًا من الأمور التي تحتاج إلى إعمال الفكر والرأي فيها اجتمعوا لها، وتشاوروا، وبحثوا فيها، حتى إذا تبينت

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٢٨٦، مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ٢١٨.

(٢) أخرجه أحمد ٤٥/ ٥٠٠، رقم ٢٧٥٠٨، وأبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في إصلاح ذات البين، ٤/ ٢٨٠، رقم ٤٩١٩، والترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة، باب سوء ذات البين، ٤/ ٢٤٤، رقم ٢٥٠٩، وصححه. وصححه الألباني في صحيح الجامع ١/ ٥٠٦، رقم ٢٥٩٥.

(٣) التحرير والتنوير ٢٥/ ١١٢.

لهم المصلحة، انتهزوها وبادروها؛ وذلك كالرأي في الغزو والجهاد، وتولية الموظفين لإمارة أو قضاء أو غيره، وكالبحث في المسائل الدينية عمومًا، فإنها من الأمور المشتركة، والبحث فيها لبيان الصواب مما يحبه الله، وهو داخل في هذه الآية[1].

ولذلك حث النبي صلى الله عليه وسلم على الائتمار بالمعروف بين الزوجين، فقال: ﴿وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ﴾ [الطلاق: ٦].

ثالثًا: أوامر المنافقين:

مما لا يحتاج إلى بيان أن أوامر المنافقين تنصب في جانب الشر والفساد، وتوصل متبعها إلى الهلاك والخسران، وهذا ما بينه القرآن من خلال إبرازه لأوامر المنافقين، والمظهرة كما يلي:

١. الأمر بالمنكر.

قال تعالى: ﴿وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ۘ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۚ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧].

يقول تعالى ذكره: في شأن المنافقين والمنافقات، وهم الذين يظهرون للمؤمنين الإيمان بألسنتهم، ويسرون الكفر بالله ورسوله، قال ابن عباس رضي الله عنهما: بعضهم على دين بعض، وقال مقاتل: بعضهم أولياء بعض، ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ﴾ وهو الكفر، ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ وهو الإيمان.

وفي قوله تعالى: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ أربعة أقوال:

أحدها: يقبضونها عن الإنفاق في سبيل الله، قاله ابن عباس والحسن ومجاهد.

والثاني: عن كل خير، قاله قتادة.

والثالث: عن الجهاد في سبيل الله.

والرابع: عن رفعها في الدعاء إلى الله، ذكرهما الماوردي[2].

ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ أي: نسوا ذكر الله ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ أي: عاملهم معاملة من نسيهم، كقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الجاثية: ٣٤].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: الخارجون عن طريق الحق، الداخلون في طريق الضلالة[3].

قال الإمام الرازي: «اعلم أن هذا شرح لنوع آخر من أنواع فضائحهم وقبائحهم، والمقصود: بيان أن إثمهم كذكورهم في تلك الأعمال المنكرة، والأفعال الخبيثة،

(١) انظر: التيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٥٩.

(٢) زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٢٧٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٧٣.

Made searchable using ScribeTools.com

أي: في صفة النفاق؛ وذلك كما يقول إنسان لآخر: أنت مني وأنا منك، أي: أمرنا واحد لا مباينة فيه ولا مخالفة»[1].

قال الإمام الزمخشري: أريد به نفي أن يكونوا من المؤمنين، وتكذيبهم في قولهم: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ [التوبة: ٥٦].

وتقرير قوله: ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ ثم وصفهم بما يدل على مضادة حالهم لحال المؤمنين بقوله: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ﴾ كالكفر والمعاصي ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ كالإيمان والطاعات[2].

٢. الأمر بالبخل.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ٣٧].

وقال: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الحديد: ٢٤].

فالحق سبحانه يقول: إن الله لا يحب المختال الفخور، الذي يبخل، ويأمر الناس بالبخل، و(البخل) في كلام العرب: منع الرجل سائله ما لديه، وعنده ما فضل عنه، و(الشح): أن يشح على ما في أيدي الناس، ويحب أن يكون له ما في أيدي الناس بالحل والحرام، لا يقنع، وقد قيل: إن الله جل ثناؤه عنى بقوله: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ الذين كتموا اسم محمد صلى الله عليه وسلم وصفته من اليهود، ولم يبينوه للناس، وهم يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل.

والمراد بهذه الآية في قول ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: اليهود، فإنهم جمعوا بين الاختيال والفخر والبخل بالمال وكتمان ما أنزل الله من التوراة من نعت محمد صلى الله عليه وسلم، وقيل: المراد المنافقون الذين كان إنفاقهم وإيمانهم تقية، والمعنى: إن الله لا يحب كل مختال فخور، ولا الذين يبخلون ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ توعد المؤمنين الباخلين من توعد الكافرين بأن جعل الأول عدم المحبة، والثاني عذابًا مهينًا[3].

٣. أمر الغير بالبر دون النفس.

قال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].

اختلف العلماء في المراد بالبر في هذا الموضع على وجوه، أحدها: وهو قول السدي: أنهم كانوا يأمرون الناس بطاعة الله وينهونهم عن معصية الله، وهم كانوا

(١) مفاتيح الغيب، ٤/ ٤٧٠.
(٢) الكشاف ٤/ ٢٨٧.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ١٩٣.

يتركون الطاعة، ويقدمون على المعصية... وسادسها: لعل المنافقين من اليهود كانوا يأمرون باتباع محمد صلى الله عليه وسلم في الظاهر، ثم إنهم كانوا في قلوبهم منكرين له فوبخهم الله تعالى عليه، وسابعًا: أن اليهود كانوا يأمرون غيرهم باتباع التوراة، ثم إنهم خالفوه؛ لأنهم وجدوا فيها ما يدل على صدق محمد صلى الله عليه وسلم، ثم إنهم ما آمنوا به[1].

أي: أتأمرون الناس بالطاعة، وتتركون أنفسكم فلا تتبعونه، وأنتم تقرؤون التوراة فيها نعته وصفته، أفلا تعقلون أنه حق فتتبعونه؟ والعقل مأخوذ من عقال الدابة، وهو ما يشد به ركبة البعير فيمنعه من الشرود، فكذلك العقل يمنع صاحبه من الكفر والجحود[2].

فالمراد بقوله: ﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ وتنسون أنفسكم أنكم تغفلون عن حق أنفسكم، وتعدلون عما لها فيه من النفع، أما قوله: ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ فمعناه: تقرؤون التوراة وتدرسونها، وتعلمون بما فيها من الحث على أفعال البر والإعراض عن أفعال الإثم، وأما قوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فهو تعجب للعقلاء من أفعالهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٧][3].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(رأيت ليلة أسري بي رجالًا تقرض شفاههم بمقاريض من نار، قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء خطباء من أمتك، يأمرون الناس بالبر، وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب)**[4].

رابعًا: أوامر الجبابرة والمسرفين:

تتمثل أوامر الجبابرة والمسرفين كما يلي:

١. أمرهم بالكفر بالله.

كما قال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا﴾ [سبأ: ٣٣].

فالآية تشير إلى ما قاله الأتباع للرؤساء في الضلال: قالوا لهم: صدنا مكركم بنا، وخداعكم في الليل والنهار حين كنتم تأمروننا أن نكفر بالله، ونجعل له أمثالًا وأشباهًا في العبادة، وإجمال ذلك: ما صدنا إلا مكركم أيها الرؤساء بالليل والنهار حتى أزللتمونا عن عبادة الله، فأنتم كنتم تغروننا

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٣/ ٤٨٨.
(٢) معالم التنزيل، البغوي ١/ ٨٩.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب ٣/ ٤٨٨.
(٤) أخرجه أحمد في مسنده ٢١/ ١٥٨، رقم ١٣٥١٥، وابن حبان في صحيحه، ١/ ٢٤٩، رقم ٥٣.
وصححه الألباني في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان ١/ ١٨٣.

Made searchable using ScribeTools.com

وتمنوننا وتخبروننا أننا على الهدى، وإنا على شيء، وكل ذلك باطل وكذب، وهذا تطاول من المستضعفين على مستكبريهم لما رأوا قلة غنائهم عنهم واحتقروهم، حين علموا كذبهم وبهتانهم، وقد حكي نظير ذلك في قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾[البقرة: ١٦٦].

والمراد بالذين استضعفوا: الأتباع والعامة من الناس، والمراد بالذين استكبروا: الزعماء والقادة والرؤساء[(١)].

وهذا ما فعله فرعون وتبعه فيه قومه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: ٩٦-٩٧].

قال الزجاج: يعني: بعلاماتنا التي تدل على صحة نبوته.

﴿وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي: حجة بينة، ثم قال: ﴿فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ أي: شأنه وحاله، وهو ما أمرهم به من عبادته واتخاذه إلهًا، وخالفوا أمر الله تعالى ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ أي: مرشد إلى خير[(٢)]. أو بسديد يؤدي إلى صواب.

٢. الأمر بعبادة غير الله.

كما قال: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ﴾[الزمر: ٦٤].

وهذه كنتيجة لما قبلها، أو هي من لوازم الأمر بالكفر بالله.

يقول تعالى ذكره لنبيه: قل يا محمد لمشركي قومك، الداعين إلى عبادة الأوثان: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾ أيها الجاهلون بالله ﴿تَأْمُرُوٓنِّىٓ﴾ أن ﴿أَعْبُدُ﴾ ولا تصلح العبادة لشيء سواه؛ وذلك حين قال له المشركون: استلم بعض آلهتنا ونؤمن بإلهك، قال مقاتل: وذلك أن كفار قريش دعوه إلى دين آبائه[(٣)].

وأقول: نظير هذه الآية، قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٤].

وإنما وصفهم بالجهل لأنه تقدم وصف الإله بكونه خالقًا للأشياء، وبكونه مالكًا لمقاليد السماوات والأرض، وظاهر كون هذه الأصنام جمادات أنها لا تضر ولا تنفع، ومن أعرض عن عبادة الإله الموصوف بتلك الصفات الشريفة المقدسة، واشتغل بعبادة هذه الأجسام الخسيسة، فقد بلغ في الجهل مبلغًا لا مزيد عليه؛ فلهذا السبب قال: ﴿أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ﴾ ولاشك أن وصفهم بهذا الأمر لائق بهذا الموضع[(٤)].

(١) انظر: معاني القرآن، الزجاج ٣/ ٧٦، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ٢٠٩.
(٢) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٣٩٩، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٩٣.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٣٢٢.
(٤) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٧/ ١٣٠، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/ ٤٧١.

٣. الأمر بالفاحشة.

قال تعالى: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢].

فتقول امرأة العزيز لسيدنا يوسف عليه السلام: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ﴾ يعني: وإن لم يطاوعني فيما دعوته إليه، أي: فيما قد أمرته فيما تقدم ذكره عند أن أغلقت الأبواب، وقالت: هيت لك، يعني حينما طلبت منه الفحشاء فأبى، ولئن لم يفعل ما أمره به مستقبلًا ﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾ أي: ليعاقبن بالسجن والحبس ﴿وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾ يعني: من الأذلاء المهانين، فقال النسوة ليوسف: أطع مولاتك فيما دعتك إليه، فاختار يوسف السجن على المعصية حين توعدته المرأة بذلك، والمراد: أن يوسف عليه السلام إن لم يوافقها على مرادها يوقع في السجن وفي الصغار، ومعلوم أن التوعد بالصغار له تأثير عظيم في حق من كان رفيع النفس، عظيم الخطر، مثل يوسف عليه السلام[(١)].

٤. يقتلون الذين يأمرون بالقسط.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١].

قال الإمام القرطبي: «قال أبو العباس المبرد: كان ناس من بني إسرائيل جاءهم النبيون يدعونهم إلى الله عز وجل فقتلوهم، فقام أناس من بعدهم من المؤمنين فأمروهم بالإسلام فقتلوهم، ففيهم نزلت هذه الآية، وكذلك قال معقل بن أبي مسكين: كانت الأنبياء -صلوات الله عليهم- تجيء إلى بني إسرائيل بغير كتاب فيقتلونهم، فيقوم قوم ممن اتبعهم فيأمرون بالقسط، أي بالعدل، فيقتلون»[(٢)].

وهذا ذمٌ من الله تعالى لأهل الكتاب فيما ارتكبوه من المآثم والمحارم في تكذيبهم بآيات الله قديمًا وحديثًا، التي بلغتهم إياها الرسل، استكبارًا عليهم، وعنادًا لهم، وتعاظمًا على الحق، واستنكافًا عن اتباعه، ومع هذا قتلوا من قتلوا من النبيين حين بلغوهم عن الله شرعه، بغير سبب ولا جريمة منهم إليهم، إلا لكونهم دعوهم إلى الحق ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾ وهذا هو غاية الكبر[(٣)].

ومثله: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٨/ ٤٥١، لباب التأويل، الخازن ٢/ ٥٢٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٤٦.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٧.

Made searchable using ScribeTools.com

﴿فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [القصص: ٢٠].

٥. الإفساد في الأرض من الشرك ومخالفة الحق.

قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٥٠ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ١٥١ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾ [الشعراء: ١٥٠-١٥٢].

يقول الإمام ابن كثير: أي: «أقبلوا على عمل ما يعود نفعه عليكم في الدنيا والآخرة، من عبادة ربكم الذي خلقكم ورزقكم لتوحدوه وتعبدوه وتسبحوه بكرة وأصيلًا ﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ١٥١ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾ يعني: رؤساءهم وكبراءهم، الدعاة لهم إلى الشرك والكفر، ومخالفة الحق»[(١)].

ويقول الإمام الشوكاني: «﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ أي: المشركين، وقيل: الذين عقروا الناقة، ثم وصف هؤلاء المسرفين بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾ أي: ذلك دأبهم يفعلون الفساد في الأرض، ولا يصدر منهم الصلاح ألبته»[(٢)].

جزاء اتباع الأمر الإنساني

لاشك أن اتباع أمر الأنبياء والمؤمنين يتبعه الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة، أما اتباع أمر المنافقين والكافرين سيكون عاقبته الخسران والضلال المبين، وهذا ما بينه القرآن الكريم كما يلي:

أولًا: جزاء اتباع أمر المؤمنين والأنبياء:

١. الوصف بالفلاح.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

جاء في تفسير الخازن: «﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ﴾ يعني: بمحمد عليه الصلاة والسلام ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ يعني: وقروه وعظموه، وأصل التعزير: المنع والنصرة، وتعزير النبي صلى الله عليه وسلم تعظيمه وإجلاله، ودفع الأعداء عنه، وهو قوله ﴿وَنَصَرُوهُ﴾ يعني: على أعدائه ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ يعني: القرآن، سمي القرآن نورًا

(١) المصدر السابق ٦/ ١٥٦.
(٢) فتح القدير ٤/ ١٣٠.

لأن به يستنير قلب المؤمن، فيخرج به من ظلمات الشك والجهالة إلى ضياء اليقين والعلم ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ يعني: هم الناجون الفائزون بالهداية، أي: هم الفائزون بالمطلوب في الدنيا والآخرة»[1].

ويقول الإمام أبو زهرة: «فقد حكم الله سبحانه وتعالى على الذين قاموا بهذه الصفات -ومن بين تلك الصفات اتباع أمر النبي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر- بأنهم الفائزون في الدنيا باتباع الحق، وأن حياتهم كلها فاضلة، وأن تكون حياتهم في الآخرة نعيمًا مقيمًا، ورضوانًا من الله العزيز الحكيم، وهو أكبر الفوز العظيم؛ ولذا قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ والإشارة إلى الصفات يفيد أنها علة الحكم وسببه، أي: بسبب هذه الصفات ينالون الفلاح في الدنيا والآخرة؛ لأن الهداية والاستقامة فلاح لا يدركه إلا من استقامت إلى الحق نفوسهم»[2].

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل: عمران ١٠٤].

قلت: فلاشك أن الإيمان بالنبي يتبعه تنفيذ ما أمر به، ومن جملة ما أمر به الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فالإيمان بالرسول وما يقتضيه ذلك من اتباع أمره يكون لصاحبه الفلاح والفوز في الدنيا والآخرة.

٢. نيل الأجر العظيم.

قال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

يقول الإمام البغوي: يعني: ومن يفعل هذه الأشياء التي ذكرها -وهي الأمر بالصدقة والمعروف والإصلاح بين الناس- ابتغاء مرضاة الله، أي: طلب رضاه، وخرج عنه من فعل ذلك رياء أو ترؤسًا فسوف نؤتيه في الآخرة ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ قرأ أبو عمرو وحمزة:)يؤتيه(بالياء، يعني: يؤتيه الله، وقرأ الآخرون بالنون، أي: ثوابًا كثيرًا واسعًا. و(سوف) هنا لتأكيد الوقوع في المستقبل[3].

٣. نيل الرحمة من الله.

قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ

(١) لباب التأويل ٢/ ٢٥٨.
(٢) زهرة التفاسير ٦/ ٢٩٧٤.
(٣) معالم التنزيل ٢/ ٢٨٧.

Made searchable using ScribeTools.com

﴿سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

يقول الإمام ابن كثير: أي: سيرحم الله من اتصف بهذه الصفات، والتي منها الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي: من أطاعه أعزه، فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ﴿حَكِيمٌ﴾ في قسمته هذه الصفات لهؤلاء، والسين في قوله: ﴿سَيَرْحَمُهُمُ﴾ مدخلة في الوعد مهلةً لتكون النفوس تتنعم برجائه، وفضله تعالى زعيم بالإنجاز، والإشارة للدلالة على أن ما سيرد بعد اسم الإشارة صاروا أحرياء به من أجل الأوصاف المذكورة قبل اسم الإشارة[١].

٤. البشرى من الله.

قال تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[التوبة: ١١٢].

ذكر الله تعالى في هذه الآية تسعة أوصاف للمؤمنين، الستة الأولى منها تتعلق بمعاملة الخالق، والوصفان السابع والثامن يتعلقان بمعاملة المخلوق، والوصف التاسع يعم القبيلين[٢].

فمن ضمن أوصاف المؤمنين: أن ينتشر ويبرز المجتمع الفاضل الذي يقوم على الأمر بالمعروف، أي: كل ما هو معروف لا تنكره العقول السليمة، والنهي عن كل أمر تنكره العقول السليمة، فإن المجتمع الفاضل ظل لكل خلق سليم ينمو في ظله الوارف؛ ولذا كانت أمة محمد أمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيه أناس يدعون الناس إلى الرشد والهدى، وينهونهم عن الفساد والردى، فقال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾ [آل عمران: ١١٠][٣].

وقال البيضاوي: «﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: وبشر به هؤلاء الموصوفين بتلك الفضائل -والتي من بينها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر-، ووضع المؤمنين موضع ضمير (هم) للتنبيه على أن إيمانهم دعاهم إلى ذلك، وأن المؤمن الكامل من كان كذلك، وحذف المبشر به للتعظيم، وللإيذان بخروجه عن حد البيان، كأنه قيل: وبشرهم بما يجل عن إحاطة الأفهام، وتعبير الكلام»[٤]. أو بشر أيها الرسول المؤمنين المتصفين بهذه الصفات -ومن بينهم الآمرون بالمعروف والناهون عن

(١) تفسير القرآن العظيم، ٤/ ١٧٥.
(٢) انظر: حاشية الجمل ٢/ ٣٢١.
(٣) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٧/ ٣٤٥٧.
(٤) أنوار التنزيل ٣/ ٩٩.

المنكر- بخيري الدنيا والآخرة، وخصت تلك الخلال بالذكر لأن بها تكون المحافظة على حدود الله[1].

ثانيًا: جزاء اتباع أمر الجبابرة والمسرفين ما يلي:

١. العذاب الأليم.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١].

يقول الإمام ابن كثير: «فلما تكبروا عن الحق، واستكبروا على الخلق، قابلهم الله على ذلك بالذلة والصغار في الدنيا، والعذاب المهين في الآخرة، فقال: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: موجع مهين»[2].

والفاء في ﴿فَبَشِّرْهُم﴾ فاء الجواب المستعملة في الشرط، دخلت على خبر (إن) لأن اسم (إن) وهو موصول تضمن معنى الشرط، إشارة إلى أنه ليس المقصود قومًا معينين، بل كل من يتصف بالصلة فجزاؤه أن يعلم أن له عذابًا أليمًا. واستعمل (بشرهم) في معنى أنذرهم تهكمًا، وحقيقة التبشير: الإخبار بما يظهر سرور المخبر (بفتح الباء) وهو هنا مستعمل في ضد حقيقته؛ إذ أريد به الإخبار بحصول العذاب، وهو موجب لحزن المخبرين، فهذا الاستعمال في الضد معدود عند علماء البيان من الاستعارة، ويسمونها تهكمية؛ لأن تشبيه الضد بضده لا يروج في عقل أحد إلا على معنى التهكم أو التمليح[3].

٢. الأغلال ونار جهنم.

يقول تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٣٣].

قال الإمام الطبري: «قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: وغلت أيدي الكافرين بالله»[4]، والأغلال: هي السلاسل التي تجمع أيديهم مع أعناقهم[5] في جهنم، يقول جل ثناؤه: ما يفعل الله ذلك بهم إلا ثوابًا لأعمالهم الخبيثة التي كانوا في الدنيا يعملونها، ومكافأة لهم عليها، كل بحسبه، للقادة عذاب بحسبهم، وللأتباع بحسبهم ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾

(١) انظر: تفسير المراغي ١١/ ٣٤.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٢٨٥.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ٢٠٧٥.
(٤) جامع البيان ٢٠/ ٤٠٩.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٥٢٠.

Made searchable using ScribeTools.com

[الأعراف: ٣٨].

أي: إنما نجازي الفريقين وأمثالهم، كل بحسب عمله، وبسبب ما اقترفه من الشرك بالله والإثم، فللقادة عذاب يناسبهم، وللأتباع عذاب آخر يلائمهم، ولا ظلم ولا تحامل، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

ومما لا شك فيه أن القادة إلى الضلال أسوأ من الأتباع، فهم الذين يستحقون مضاعفة العذاب وأليم العقاب، ولكن يشاركهم الأتباع في هذا العذاب؛ لأنهم عطلوا نعمة العقل والوعي، وقلدوا غيرهم تقليدًا أعمى، وكان جديرًا بهم أن يتحرروا من ربقة التقليد، فكانت عقائدهم فاسدة، وأعمالهم سيئة كقادتهم، فاستحقوا جميعًا التخليد في عذاب جهنم، وبئس المصير[(١)].

٣. العذاب المهين.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ٣٧].

لقد ذكر سبحانه وتعالى في هذه الآية من الأحوال المذمومة ثلاثًا: أولها- كون الإنسان بخيلًا وهو المراد بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ وثانيها: كونهم آمرين لغيرهم بالبخل، وهذا هو النهاية في حب البخل، وهو المراد بقوله: ﴿وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ وثالثها: قوله: ﴿وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ فيوهمون الفقر مع الغنى، والإعسار مع اليسار، والعجز مع الإمكان، ثم إن هذا الكتمان قد يقع على وجه يوجب الكفر، مثل أن يظهر الشكاية عن الله تعالى، ولا يرضى بالقضاء والقدر، وهذا ينتهي إلى حد الكفر؛ فلذلك قال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ ومن قال: الآية مخصوصة باليهود فكلامه في هذا الموضع ظاهر؛ لأن من كتم الدين والنبوة فهو كافر، ويمكن أيضًا أن يكون المراد من هذا الكافر من يكون كافرًا بالنعمة، لا من يكون كافرًا بالدين والشرع[(٢)].

فهناك: توعد للمؤمنين الباخلين من توعد الكافرين بأن جعل الأول عدم المحبة، والثاني عذابًا مهينًا، أي: قد هيأنا من غاية قهرنا، وانتقامنا للكافرين لنعمنا كفرانًا ناشئًا عن محض النفاق والشقاق، عذابًا طردًا وحرمانًا مؤلمًا، وتخذيلًا وإذلالًا مهينًا[(٣)].

٤. الوصف بالفسق.

كما قال: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۘ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ

(١) انظر: الوسيط، الزحيلي ٣/ ٢١٠٩.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٠/ ٧٩.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ١٩٣.

نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٦٧].

إن المنافقين هم الفاسقون هم الكاملون في الفسق الذي هو التمرد في الكفر والانسلاخ عن كل خير، وكفى المسلم زاجرًا أن يلم بما يكسبه هذا الاسم الفاحش الذي وصف به المنافقون حين بالغ في ذمهم، أي: أنهم الخارجون عن طريق الحق، الداخلون في طريق الضلالة، فهذا تذييل قصد به المبالغة في ذمهم، وصيغة القصر في ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ قصر ادعائي للمبالغة؛ لأنهم لما بلغوا النهاية في الفسوق جعل غيرهم كمن ليس بفاسق، والإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ لزيادة تقريرهم في الذهن لهذا الحكم؛ ولتكون الجملة مستقلة حتى تكون كالمثل[1].

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٢٥٥.

أوامر إبليس وذريته

أوضح القرآن الكريم أوامر إبليس لعنه الله وذريته وعاقبة اتباعها، وسوف نتناولها بالبيان فيما يأتي:

أولًا: أوامر إبليس:

لا شك أن أوامر إبليس تتمثل في العقائد الفاسدة، والأحكام الباطلة التي تخالف منهاج الدين، ويتضح ذلك فيما يلي:

١. الأمر بتبتيك آذان الأنعام.

قال تعالى: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ [النساء: ١١٩].

البتك: القطع، والتبتيك للتكثير والتكرير، أي: لأحملنهم على أن يقطعوا آذان الأنعام، وكانوا يشقون آذان الناقة إذا ولدت خمسة أبطن، وجاء الخامس ذكرًا، وحرموا على أنفسهم الانتفاع بها، وقال آخرون: المراد أنهم يقطعون آذان الأنعام نسكًا في عبادة الأوثان، فهم يظنون أن ذلك عبادة مع أنه في نفسه كفر وفسق، سول لهم إبليس أن هذا قربةٌ إلى الله تعالى، فهو كالأمر لهم الذي يجعل ما ليس بعبادة أصلًا عبادة، وإن ذلك تشويه لما خلق الله سبحانه وتعالى[2].

(٢) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ٤٧٤، مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ٢٢٣، مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٣٩٧.

Made searchable using ScribeTools.com

يروى في ذلك أن أبا الأحوص من الصحابة أتى النبي صلى الله عليه وسلم، وكان رث الهيئة، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: **(هل لك من مال؟)** قال: نعم؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: **(فإذا آتاك الله مالًا فلير عليك أثره)** ثم قال عليه الصلاة والسلام: **(هل تنتج إبل قومك صحاحًا آذانها، فتعمد إلى موسى فتشق آذانها، وتقول: هذه بحر -أي: جمع بحيرة- وتشق جلودها، وتقول: هذه صرم -جمع صريمة-)** قال: أجل، قال: **(كل ما آتاك الله حل، وموسى الله أحد من موساك، وساعد الله أشد من ساعدك)**[1].

٢. الأمر بتغيير خلق الله.

قال تعالى: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١١٩].

يعني: بفقء عين الحامي، وإعفائه عن الركوب أو بالخصاء، وهو مباح في البهائم محظور في بني آدم، أو بالوشم، أو بنفي الأنساب واستلحاقها، أو بتغيير الشيب بالسواد، أو بالتحريم والتحليل، أو بالتخنث، أو بتبديل فطرة الله التي هي دين الإسلام؛ ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠].

وكذلك استعمال الجوارح والقوى فيما لا يعود على النفس كمالًا، ولا يوجب لها من الله سبحانه وتعالى زلفى[2].

فتغيير الخلق يشمل التغيير المادي والمعنوي، وكان كل ذلك خضوعًا لأوامر الشيطان، فكانوا بهذا أولياءه، كما قال الإمام أبو زهرة[3].

ولقد قال النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه: **(إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإن الشياطين أتتهم فاجتالتهم عن دينهم، فحرمت عليهم ما أحللت، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا، وأمرتهم أن يغيروا خلقي)**[4].

٣. الأمر بالفحشاء والمنكر.

كما قال: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

يقول الإمام الرازي: «اعلم أنه تعالى لما رغب الإنسان في إنفاق أجود ما يملكه حذره بعد ذلك من وسوسة الشيطان، فقال: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾ أي: يقال: إن أنفقت الأجود صرت فقيرًا، فلا تبال بقوله،

(١) أخرجه أحمد ٢٥/ ٢٢٦، رقم ١٥٨٩١، والترمذي في سننه، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في الإحسان والعفو ٣/ ٤٣٢، رقم ٢٠٠٦.
وصححه الألباني في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان ٨/ ٥٩.

(٢) انظر: أنوار التنزيل البيضاوي ٢/ ٩٨.

(٣) زهرة التفاسير ٤/ ١٨٦٦.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا ٤/ ٢١٩٧، رقم ٢٨٦٥.

فإن الرحمن يعدكم مغفرة منه...، ثم قال: أما قوله: (الفحشاء) ففيه وجوه، الأول: أن الفحشاء هي البخل ﴿وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ أي: ويغريكم على البخل إغراء الأمر للمأمور.

الوجه الثاني: في تفسير الفحشاء، وهو أنه يقول: لا تنفق الجيد من مالك في طاعة الله؛ لئلا تصير فقيرًا، فإذا أطاع الرجل الشيطان في ذلك زاد الشيطان، فيمنعه من الإنفاق في الكلية حتى لا يعطي لا الجيد ولا الرديء، وحتى يمنع الحقوق الواجبة، فلا يؤدي الزكاة، ولا يصل الرحم، ولا يرد الوديعة، فإذا صار هكذا سقط وقع الذنوب عن قلبه، ويصير غير مبال بارتكابها، وهناك يتسع الخرق، ويصير مقدامًا على كل الذنوب؛ وذلك هو الفحشاء»[(١)].

وقال الإمام ابن كثير: «﴿وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ أي: مع نهيه إياكم عن الإنفاق خشية الإملاق، يأمركم بالمعاصي والمآثم والمحارم، ومخالفة الأخلاق»[(٢)].

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٩].

وهذه الآية بيان لعداوته، ووجوب التحرز عن متابعته، واستعير الأمر لتزيينه وبعثه لهم على الشر تسفيهًا لرأيهم، وتحقيرًا لشأنهم، والسوء والفحشاء ما أنكره العقل، واستقبحه الشرع، والعطف لاختلاف الوصفين، فإنه سوء لاغتمام العاقل به، وفحشاء باستقباحه إياه.

وقيل: السوء يعم القبائح، والفحشاء ما يتجاوز الحد في القبح من الكبائر.

وقيل: الأول ما لا حد فيه، والثاني: ما شرع فيه الحد، فالسوء ما يسوء صاحبه ويخزيه، والفحشاء يعني بها المعاصي، وما قبح من قول أو فعل[(٣)].

وقال الإمام ابن كثير: «أي: إنما يأمركم عدوكم الشيطان بالأفعال السيئة، وأغلظ منها الفاحشة كالزنا ونحوه، وأغلظ من ذلك وهو القول على الله بلا علم، فدخل في هذا كل كافر، وكل مبتدع أيضًا»[(٤)].

ونظير ذلك قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [: ٢١].

ثانيًا: عاقبة اتباع أوامر إبليس وذريته في الدنيا والآخرة:

يتمثل في الخسران المبين في الدارين، كما قال تعالى: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ

(١) مفاتيح الغيب ٧/ ٥٥ .
(٢) تفسير القرآن العظيم ١/ ٧٠٠.
(٣) انظر: أنوار التنزيل البيضاوي ١/ ١١٨.
(٤) تفسير القرآن العظيم ١/ ٤٨٠.

Made searchable using ScribeTools.com

﴿ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١١٩].

قال البيضاوي: «يعني: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بإيثاره ما يدعو إليه على ما أمر الله به ومجاوزته عن طاعة الله سبحانه وتعالى إلى طاعته، ﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ إذا ضيع رأس ماله، وبدل مكانه من الجنة بمكان من النار، فهذا الخسران في غاية الظهور والرداءة بما تعطيه صيغة الفعلان»[(١)].

فمن يوالي الشيطان فيطيعه مع أنه متمرد عن الحق، داعٍ إلى الشر، ويترك الحق وأمر الله، فإنه بهذا يخسر خسرانًا واضحًا، يخسر الحق فلا يتبعه، ويرتكب الشر، ويترك المعقول إلى المرذول، ويمسخ فطرة الله تعالى، وتنحرف نفسه، ويلتوي تفكيره، وتشوه إنسانيته؛ وذلك خزي في الدنيا ووراءه عذاب في الآخرة، وأي: خسارة أعظم من هذه الخسارة وأوضح منها[(٢)].

وهكذا يتبين لنا: أن طاعة الله تعالى تفيد المنافع العظيمة الدائمة، الخالصة عن شوائب الضرر، وطاعة الشيطان تفيد المنافع القليلة المنقطعة، المشوبة بالغموم والأحزان، ويعمها العذاب الدائم، وهذا هو الخسار المطلق؛ وتلك خسارة لا جبر لها، ولا استدراك لفائتها[(٣)].

موضوعات ذات صلة:

الحرام، الحلال

(١) أنوار التنزيل ٢/ ٩٨.
(٢) زهرة التفاسير ٤/ ١٨٦٦.
(٣) انظر: اللباب في علوم القرآن، ابن عادل ٧/ ٣٧.